

الباب الأول

في المدرسة السوفيتية

كان يوم ١٨ يونية ١٩٣٥م هو اليوم الاخير لنا في السويد ، خرجنا في مساته نتجول في شوارع « ستوكهولم » بصحبة بعض أصدقاء والدتي ، وهم ألمانيون طردوا من ألمانيا كما طردنا . صحبونا الى النابخرة التي سوف تقلنا الى الميناء الفنلندي « توركو » .

حانت لحظة وداعهم ايانا ، فتمنوا لنا رحلة موفقة الى موسكو .
نم أتذكر شيئا مما رأيته في رحلتنا عبر فنلندا ، لأنى كنت متشوقا الى رؤية موسكو ، نهاية هذه الرحلة ، وقد غطى هذا على أحداث السفر ، فلم أحفل بها ، اللهم الا شذرات قليلة .

ففى اليوم التالى جلسنا فى القطار الذى كان يغادره المسافرون كلما اقتربنا من الحدود الفنلندية — السوفيتية ، حتى لم يبق فى العربّة الا أنا وأمى . اتجه كمسارى القطار نحونا قائلا : « بعد ربع ساعة سيصل القطار الى الحدود » وذكر اسما لم أستطع نطقه ، لاشتماله على كثير من حروف العلة . مثل ا ، ت ، واى ، كان اسم محطة الحدود الفنلندية آنذاك ، واليوم ، بعد أن فقدت فنلندا بعض مناطقها على الحدود ، فمن المحتمل أن يحمل هذا المكان اسما سوفيتيا .



الرحلة الى موسكو

وقفنا على المحطة الصغيرة — التى بدت كالمهجورة — حيارى ، لا ندرى الى أين نتجه ! ثم تقدم اليينا موظف فى المحطة ، فشرح لنا كيفية مواصلة الرحلة الى موسكو : توجد مواصلة صغيرة بين آخر محطة فى فنلندا ، وأول محطة فى روسيا . بعد ربع ساعة تقريبا سيصل القطار الذى يقلكم الى الحدود السوفيتية . ومن هناك تأخذان القطار المتجه الى ليننجراد .

لم تكن هذه أول رحلة لأمى الى موسكو ، فقد زارت الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٥م . اذ كانت أثناء الحرب العالمية الأولى عضوا

في « جمعية سبارتاكوس »^(١) ، ثم انصمت في عام ١٩١٨ م الى الحزب الشيوعي . عملت مدة طويلة وكيلة صحفية للمكتب التجاري السوفييتي في برلين ، ولكنها خرجت في عام ١٩٢٥ من الحزب الشيوعي الألماني ، فاعتبرت منذ ذلك الحين من اليساريين الذين لا وطن لهم . استغلت — بعد أن تولى « هتلر » السلطة — في برلين بطريق غير قانوني حتى ربيع عام ١٩٣٥ حيث ذهبت الى السويد .

أما أنا ، فقد كنت آنذاك غلاما يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، استولت عليه أحاسيس غامضة ، أضفت عليه سرورا بالغا ، لأنه سبى سفر الى الاتحاد السوفييتي . نشأت في برلين وكنت تلميذا في مدرسة « كارل ماركس » وفي نهاية عام ١٩٣١م التحقت بمنظمة انشباب في الحزب الشيوعي الألماني ، ثم أرسلتني أمي في خريف عام ١٩٣٣ م الى السويد حيث أقمت في أحد بيوت الطلبة ، الأمر الذي ساعدني على تعلم اللغة السويدية بسرعة ، إذ استطعت في هذه المدة اتقانها والتحدث بها بطلاقة .

وعندما جاءت أمي الى السويد ، والتقت بي ، كان علينا أن نتخذ قرارا يحدد البلد التي ينبغي أن نعيش فيها ، فقد تفرقت المجموعة السرية التي كانت أمي أحد أعضائها ، وألقى القبض عليهم ، ولا زالت المخابرات العامة الألمانية تبحث عن أمي ، ولهذا لا نستطيع أن نعود الى ألمانيا ، أما اقامتها في السويد فلأجل محدد : لأن نصريح الإقامة محدود بزمان معين .

نزلنا ذات يوم بعد العصر نتجول في أحد ضواحي ستوكهولم الجميلة فدار بيني وبين أمي حديث فهمت منه ما يدور في رأسها ، اذ وجهت الى الحديث قائلة :

أنت الآن غلام يافع ، — هكذا كانت بداية الحديث — ونذا فأنا أريد أن أتحدث معك عن مستقبل حياتي .

(١) اتحاد يساري تكون عام ١٩١٧ م تحت زعامة « كارل ليبكنشت » و « روزا لوكسمبرج » . وهو يمثل الاتجاه البلشفي منذ ثورة أكتوبر في روسيا . وفي مؤتمر الحزب الذي عقد في عامي ١٨ - ١٩١٩ م غير الاسم ، وأصبح الحزب الشيوعي . ويرجع اسم « سبارتاكوس » الى الخطابات التي كان ينشرها « كارل ليبكنشت » تحت اسم خطابات « سبارتاكوس » .

أومات رأسى مظهرا ملامح جادة ، كما يفعل كل الثبان الذين بلغوا الثالثة عشرة حين يعاملون كما لو كانوا فعلا فى سن الرشد .
واصلت حديثها :

لا أريد أن أتخذ قرارا دون موافقتك ، فالوقف يبدو كما يلى :
لا نستطيع الإقامة فى السويد ، لأننى لن أتمكن من الحصول على عمل هنا . وقد راسلت كثيرا من المعارف والأصدقاء ، وفكرت فيما كتبوه لى فوجدت أننا أمام أمرين :

أما أن نسافر الى انجلترا ، وعلى وجه التحديد الى مانشيستر حيث يعيش أصدقاء أعزاء . ويمكنك فى هذه الحالة أن تلتحق بمدرسة انجليزية ، وتبقى فى انجلترا طالما النازيون متسلطين على الحكم فى ألمانيا .

فسألتها متعجلا : والأمر الآخر ؟

صمتت لحظة ، ثم قالت : نسافر الى الاتحاد السوفييتى .

فقلت مصمما ومؤكدا : أنا أفضل الاتحاد السوفييتى .

لا أدرى ! أكان موقفى هذا سببا فى تحويل وجهتنا شطر الاتحاد السوفييتى ، أم دخلت اعتبارات أخرى ، وعلى كل فقد قررنا الرحيل .

لم ندرك — آنذاك — المصائب التى سوف تحل بنا بسبب اتخاذنا هذا القرار ، إذ لم يكن فى مقدرو أُمى أن تتنبأ بأنها سيقبض عليها بعد سنة ونصف من تاريخ اختيارها الإقامة فى الاتحاد السوفييتى ، ولم تتخيل اطلاقا أن الذى سيلقى القبض عليها هو جهاز مخابرات وزارة الداخلية السوفييتية المختص بتعقب أعداء الحزب . ألقى القبض عليها ، فاخترقت فى معسكرات العمل السوفييتية اثنتا عشرة سنة ، حيث عادت الى برلين فى عام ١٩٤٨م .

كذلك لم أتصور — آنذاك — أننى سوف أقضى فى الاتحاد السوفييتى عشر سنوات بين مدارسها ، وأنظمة الحزب فيها ، وأننى سأكون ضمن طلبة احدى المدارس السياسية العليا فى روسيا التى تخرج القادة الشيوعيين . ثم أكفر بهذا النظام الذى اتخذته عقيدة لى منذ طفولتى .

كان هذا كله فى علم الغيب ، فى المستقبل البعيد ، فحديثنا نحن الآن لازال فى أحد أيام يونيو عام ١٩٣٥م حيث كنا ننتظر القطار على

محطة الحدود الفنلندية — الذى سيقلنا الى داخل الاتحاد السوفييتى • دخل قطار صغير على رصيف المحطة فى الموعد المحدد • فرأيت صورة المنجل والمطرقة مرسومة على قاطرته وعرباته ، ولم أكن قد رأيتها من قبل الا على الأعلام التى يحملها المتظاهرون ، لذا اعترانى اضطراب ، بينما كان السائق يطل من النافذة ويحيينا مبتسما • ثم تقدم الينا موظف المحطة الفنلندى قائلا :

هذا هو قطاركم الذى سيوصلكم الى محطة الحدود السوفييتية « بلوستروف » •

وصلنا الى الحدود بعد بضع دقائق ، على الرغم من أن سرعة القطار لم تزد على سرعة عربة تجرها الخيل ، فرأينا من النافذة حاجزا ضخما من الجرائيت ، يقف على أحد جانبيه جندى فنلندى ، وعلى الجانب الآخر أحد جنود الجيش الأحمر — وهو أول جندى سوفيتى تقع عليه عينى — يلمع النجم السوفييتى على قلنسوته ، ملتقنا النظر الى رسم المنجل والمطرقة •

اتجه الينا مجموعة من الرجال — بعضهم عسكريون ، والبعض الآخر يرتدى الملابس المدنية — المكلفين بمراقبة الحدود السوفييتية ، فاقترادونا الى مبنى المحطة حيث فتحو حقائبنا ، وفتشوها تفتيشا دقيقا ، لم يهتموا بالملابس والأطعمة ، بل ركزوا عملهم على لكتب ، فحصوها بعناية رغم أنها كانت كتباً شيوعية ، بل تصفحوا بعضه صفحة صفحة •

وأخيرا انتهت عملية التفتيش ، وبعد أن ركبنا قطار « ليننجراد » أطلقت الصفارة مؤذنة بالتحرك • كان القطار مزدحما بالركاب ، غير أنهم أفسحوا لنا مكانا ، فقد كنا الأجانب الوحيدين بينهم ، ولهذا كانوا ينظرون الينا مستغربين ، ودارت أحاديثهم — هكذا لاحظت — علينا ، ولكنى لم أفهم كلمة واحدة ، ولم يتبادل أحد منهم كلمة واحدة معنا • توقفنا فى « ليننجراد » بضع ساعات ، فكانت فرصة لالقاء نظرة على أول مدينة سوفيتية •

تعلو الكآبة كل مظاهر الحياة ، ويخيم البؤس الشديد على هذا المجتمع ، اذ تبدو واجهات المنازل فاتمة ، ليس لها رونق وأبهة منازل « استوكهولم » ولا يرتدى الناس هنا ملابس جديدة ، فلا وجه للمقارنة بينها وبين الناس فى « استوكهولم » • • رأيت أطفالا

كثيرة يسировون حفاة ، وهو منظر لم أراه من قبل ، لهذا كان وقعه في نفسي غريبا ، اذ اعتراني انقباض ، لكن سرعان ما نسيت هذا كله ، لأن ما مر أمام عيني لم ينسجم اطلاقا مع الصورة التي أرغبها .
 واصلنا السفر بقطار الليل الى موسكو ، ولما كنت مجهدا بسبب ما مر بي من صور وأحداث خلال النهار ، فقد استسلمت لنوم عميق في القطار ، ولم أستيقظ الا في موسكو .
 تلك المدينة التي كتب على أن أقضى فيها أعواما كثيرة ، وأن تكون وطني الثاني .



مدرسة « ليبكنشت » في موسكو

لم يكن وصولنا الى موسكو عن طريق مكتب سياحي ، ولم نأت إليها ضمن وفد رسمي ، ولهذا لم تقم لنا الاحتفالات ، ولم نستقبل استقبالا رسميا ، ولم يحجز لنا في حجرة في فندق ، لكن كان في انتظارنا بعض أفراد ، ربطتهم بأمي صلة صداقة قديمة .

اتجهنا من المحطة — مخترقين موسكو — الى المنزل رقم ٥ بشارع « جرانوفسكي » حيث نزلنا في شقة أحدهم عارفنا وتسميتها شقة فيه بعض المبالغة ، فقد كانت عبارة عن حجرة واحدة فقط . دار الحديث في هذه الشقة حول الخطط التي تتعلق بحياتنا في موسكو . وكان أول ما فكرت فيه أُمي مسألة التحاقى بمدرسة ، اذ قالت :

« يجب أن يلتحق الغلام بمدرسة ، كيف وهو لا يعرف الروسية ؟ »

فأجاب الحاضرون :

ليس ذلك أمرا ضروريا . فعدم معرفته الروسية ليست مشكلة ، اذ يوجد في موسكو مدرستان أجنبيتان ، احدهما انجليزية ، والأخرى الألمانية .

على فكرة ! ابنك محظوظ ، لأن المدرسة الألمانية ستنتقل في أول سبتمبر القادم الى المبنى الجديد الجميل رقم ١٢ في شارع « كربتوتكن » . سألت مندهشا :

هل يوجد ألمانىون في موسكو ؟ تبسم الحاضرون وقالوا :

طبعاً ! يعيش في موسكو بضعة آلاف من الألمانىين والنمساويين المنفيين ، كان كثير منهم أعضاء في رابطة الدفاع الذين اشتركوا في

الثورة ضد « دلفوس »^(١) في فبراير ١٩٣٤ ، وبعد فشلها لجأوا الى موسكو .

كذلك يوجد هنا نادى ألماني ، وجريدة يومية تصدر باللغة الألمانية تحت اسم « الجريدة المركزية الألمانية » ودار نشر للعمال الأجانب في الاتحاد السوفييتي وهي تنشر كتباً باللغة الألمانية .

هكذا بدأت حياتنا في موسكو ، كان البحث عن سكن هو أول ما يجب عمله ، فقد أقمنا في الأيام لأولى عند أصدقائنا ، يوماً هنا ، وآخر هناك حتى وجدنا حجرة مفروشة ، ثم بحثت أمي عن عمل ، أما أنا فلم يكن لدى ما يجب عمله ، لأن المدارس لم تفتح بعد أبوابها ، اذ لا زلنا في فترة الاجازة الصيفية .

كان أول سؤال وجه الى في اليوم التالي لوصولنا الى موسكو : ألا تريد أن ترى مترو الأنفاق ؟ لأنه كان حديث المجتمع الذي لا ينتهي . وكان الكلام عنه وسيلة للفخر والاعتزاز بالنفس ، فغطت أخبار افتتاحه — بدأ العمل به كوسيلة للمواصلات في ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ م — على كل ما عداه من أحداث ، وطبعت صيغة الكلام بين الناس على نحو يكاد يكون واحداً في جميع المستويات لثقافية . هل ركبت مترو الأنفاق ؟ يليه مباشرة :

هل أعجبك ؟ كيف كان شعورك ؟ ثم ينساب حديث طويل عن مدى أهميته في حركة المواصلات ، وعن مزاياه العديدة . مرة واحدة قابلت فيها أحد الذين لم يتحمسوا لمترو الأنفاق هذا ، بل على العكس ، أبدى ملاحظة تتم عن معارضته للنظام الحاكم ، وذلك حيث قال :

« لو أن موسكو تتمتع فوق أرضها بواحد على عشرة من نظافة ما تحت أرضها لكان أحسن وأولى » كانت ملاحظة في غاية الدقة ، فقد كان الاختلاف بين شوارع موسكو وأنفاقها واضحاً جداً .

لم يكن من السهل أن يجتدى المرء الى أى عنوان في موسكو ، فليس هناك خريطة للمدينة تبين مواقع شوارعها ، وما تقدمه لنا الخريطة التي كانت مع أمي ضئيل الفائدة ، لأنها طبعت في عام ١٩٢٤ ، فلا يتطابق ما فيها مع واقع المدينة ، اذ غير هدم المنازل القديمة ، واقامة

(١) « انجيلبيرت دولفوس » (١٨٩٢ — ١٩٣٤) تولى رئاسة الوزراء

في النمسا في مايو سنة ١٩٣٢ وظل فيه الى أن اغتاله الاشتراكيون .

العمارات الحديثة ملامحها ، واختفى كثير من أسماء الشوارع القديمة . وكان من السابق للأوان أن يجد المرء في جميع المكتبات آلاف الخرائط التي تبين ما ستكون عليه المدينة في عام ١٩٤٥م . فنحن الآن في عام ١٩٣٥م ، ونحتاج الى ما يقدم لنا المساعدة في موكب على حالتها الراهنة . لذا تساءلت أُمى باستغراب :

أليس هذا اغراقا في الخيال ؟ ان من المعقول أن يقدم لى ما أحجاجة الآن لا ما سوف أطلبه بعد عشر سنوات !!

فكانوا يجيبون بكل بساطة !! سيبدأ العمل بمشروع السنوات العشر في أوائل يوليو ، ويستلزم هذا تجديد كل وسائل الاعلام للعاية له ، ولهذا طبعت المنشورات التي توضح الصورة التي ستؤول اليها موسكو في عام ١٩٤٥م ، أما دالته اليوم فيعلمها الجميع !!

اذن لا مفر من أخذ الخريطين معنا ، عندما نتجول في الشوارع رغم أن كليهما لا يتصل بواقع المدينة ، فاحدهما تقدم صورة الماضي والأخرى ترسم الأمل الذي لازال خطوطا متخيلة .

جسمت لنا تجربتنا مع خرائط المدينة نموذجا حيا لحقيقة الظروف التي يمر بها الاتحاد السوفييتي ، فقد كان عام ١٩٣٥م من أعوام فترة الانتقال التي خلفت وراءها ثورة وحربا أهلية ، وفترة الخطأ انخسامة الأولى ، أما أعوام التطهير والاعتقال بالجملة ، والأحداث التي أدت الى عقد معاهدة بين « ستالين » و « هتلر » والحروب التي وقعت بين روسيا وفنلندا فلا زالت في علم الغيب . ألغيت بطاقات التموين في مستهل عام ١٩٣٥م ، وأعلن في مؤتمر سوفييتي — اجتمع اجتماعا فوق العادة — أن لجائنا خاصة تعكف الآن على وضع دستور يضمن الحرية للشعب ، ويؤكد أن الديمقراطية هي اطار العمل السياسى . اجتزنا المراحل الصعبة — كان هذا ظابع معظم أحاديث المسئولين وأعضاء الحزب آنذاك — وأحوالنا آخذة في التحسن لا محالة . كذلك سيصبح النظام السياسى أكثر ديمقراطية ، اذ يرى المرء هذا واضحا في مسودة الدستور .

كان الكل متفائلا الا نفر قليل أبدوا شكوكهم في حقيقة هذه الوعود . وسرعان ما أثبتت الأحداث أنهم كانوا على حق في موقفهم هذا . ففي الأسابيع الأولى سمعت أكثر من مرة اسم « كيروف » فمن هو كيروف ؟ كان عضوا في المكتب السياسى ، واغتيل في ليننجراد

في أول ديسمبر سنة ١٩٣٤م ، فقامت السلطات بالقبض على الناس بالجملة دون تمييز . اذ لم يقتصر ضحاياها على أعضاء أحزاب وتجمعات أخرى معادية للحزب الشيوعي ، أو على أولئك الذين لم ينضموا الى هيئات سياسية البتة ، بل تجاوزت اجراء تهم هذا الأسلوب الذي كان معروفا عندهم من قبل ، فشمّل قادة بلشفيين .

اذا تناول الناس حديث « كيروف » خففت الأصوات ، وارتفعت مخارج الحروف ، وبدأت على الوجوه معالم الكفر بكل اتجاه . وقد عبر عن هذا أحد أصدقائنا بقوله :

« لقد هزنتى حالة « كيروف » من الأعماق ، لأن البلشفي القديم كان بالنسبة لنا حتى قبل أسابيع قليلة اسم شرف ، وكان الانتماء الى مجموعة البلشفيين ينظر اليه من عل ، اذ كان وساما رفيعا لا يناله الا من ابتسم له الحظ .. واليوم ! حلت هذه المجموعة في ٢٦ مايو ، دون ابداء سبب سياسى وصور مقررهم » .

دارت معظم الأحاديث في الأسابيع الاولى لوصولنا حول هذا الموضوع فانتشرت هذه الدعاية :

ألم تسمع آخر خبر ؟ لقد حلت 'المنظمة الثورية المساعدة !

أى منظمة تقصد ؟

الهيئة البلشفية القديمة .

كانت دعاية ، ولكن لها مغزى سياسى مر .

سمعت هذه الأحاديث عندما كنت غلاما يهتم بالسياسة رغم صغر

سنه .

وكانت الآراء مختلفة ، فهناك المتفائل ، والمتشائم ، المؤيد ، والمعارض ، المدافع ، والناقد ، اذ كان المرء يستطيع آنذاك أن يتكلم بحرية في بعض الموضوعات ، لأن حملة التطهير — التى امتدت من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨م — لم تكن قد بدأت بعد .

التحقت في ١ سبتمبر ١٩٣٥م بالمدرسة الألمانية « مدرسة كارل ليبكنشت » في موسكو . وكان مقرها مبنى جميلا أقيم على أحدث طراز ، وهو مكون من أربعة طوابق ، وحجراته واسعة تدخلها الشمس . هو واحد من اثنين وسبعين مبنى جديدا ، شيدت في عام ١٩٣٥م في موسكو . يبدو من الخارج كأي مبنى مدرسى حديث في غرب أوروبا :

ولكن عندما دخلته تطلعت مندهشا الى أحد الأركان حيث أقيم تمثال
ضخم لستالين كتب على قاعدته :

لا يوجد حصن ، يصعب على البلشفيين اقتحامه • « ستالين »
وفي المدخل الرئيسى للمدرسة رأيت شعارا جديدا ، كتبت كلماته
بألون الأبيض على قماش أحمر :

تعلموا ، تعلموا ، ومرة أخرى تعلموا • « لينين »

دخلت عند الناظر — وكان يدعى الزميل « شيلاسكو » لانتهاء
الاجراءات ، ولم يكن الالتحاق بالمدرسة سهلا ، لأن نظام التعليم فى
الاتحاد السوفييتى يختلف اختلافا كبيرا عن أنظمة التعليم فى البلاد
الأخرى • فالتعليم الإلزامى هناك لا يبدأ الا عند بلوغ الطفل سن
الثامنة . ويستمر سبع سنوات ، تليها ثلاث سنوات لمن يريد الالتحاق
بالجامعة أو المعاهد العليا •

قال الناظر موجها خطابه لى :

« طبقا لنظام التعليم السوفييتى ستقبل فى السنة السادسة » •
صعدت سلم المدرسة متخاذلا • وقدمنى المدرس للتلاميذ باسم :
« التلميذ الجديد » ، فرمقونى بنظرات فضولية وتهامسوا مع بعضهم •
جلست على مقعدى وأنا مرتبك بادى الخجل • وعندما تأملت زملائى
فى الفصل رأيتهم جميعا يلبسون مناديل الجواله الحمراء ، وعندما
أجلت النظر مرة أخرى رأيت فتاة تجلس فى الصف الأمامى على
اليمين ، وهى الوحيدة فى الفصل التى لا ترتدى هذا المنديل •

كان التدريس باللغة الألمانية الا أن المناهج سوفييتية ، ومعظم
المدرسين كانوا من اللاجئيين السياسيين مثلنا ، جاءوا من فرنسا
ونشيكوسلوفاكيا مارين بالسويد •

كانت مادة التدريس وخطه متطابقة تماما مع ما يطبق فى المدارس
الروسية ، فكل الكتب المقررة — حتى كتب الرياضة والكيمياء —
مترجمة من اللغة الروسية • كان الاختلاف كبيرا بين هذه المدارس وبين
مثيلاتها فى الغرب وان بدا فى بادىء الأمر مماثلة ظاهرية بينهما ،
فالواجبات فى مدرسة « كارل ليبكنيثت » أكثر مما كان يطلب منى فى أى
مدرسة زرتها ، اذ يجب على التلميذ أن يعمل واجبات منزلية كثيرة
ومتعددة مما يضطره الى بذل مجهود كبير والا تخلف عن متابعة
الدراسة •

تأخذ كل يوم تقريبا ساعة لغة روسية بالإضافة الى اللغة الانجليزية كلغة أجنبية ثانية ، وتحظى المواد الرياضية ، والعلوم الطبيعية باهتمام كبير . اذ يبدأ في السنة السادسة تعليم الجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، وبدلا من الرسم يتعلم التلميذ ما يعرف باسم : رسم الهندسة الميكانيكية . وفي مادة التاريخ أخذنا التاريخ القديم كله ، وفي الجغرافيا درسنا جغرافية البلاد الرأسمالية (يدخل تحت هذا جميع البلاد عدا الاتحاد السوفييتي) ، وتتناول هذه المادة البناء الاقتصادي ، والعلاقات السياسية لكل دولة على حدة . وفي الأدب درسنا الأدب الروسى . والأدب الألماني . خصصت ساعة واحدة لمادة المجتمع . درسنا فيها التطور السياسى ، والهيكل الحكومى للدولة فى الاتحاد السوفييتى . استبدلت هذه المادة فى السنوات اللاحقة بمادة « علم الدستور » . كانت رقابة تحصيل التلاميذ فى هذه المدرسة — اذا قيست بالمدارس الحديثة التى زرتها من قبل — شديدة . فكل اجابة تسجل مرتين : احدهما فى سجل الفصل الذى يحتفظ به المدرس ، والأخرى فيما يسمى السجل اليومى ، ويظل مع التلميذ . ويجب على أولياء الأمور التوقيع عليه أسبوعيا ، بما يفيد أنهم يتابعون أعمال التلميذ فى المدرسة .

قسم العام الدراسى الى أربعة أقسام ، يعقب كل قسم مراجعة وامتحان . وفى آخر العام يعقد امتحان تحريرى فى جميع المواد ، وفى معظمها شقوى ، وتحريرى .



التحاقى بالجوالة السوفييتية

اتبعت كل الأساليب لحملنا على بذل أكبر مجهود لتعصيل العلم ، فالتلميذ الذى كان يحصل على درجة ضعيف ، أو على تعبير « ملاحظة » — وهى كلمة تأنيب لمن يبدو منه التخاذل فى التحصيل — يجب عليه أن يشرح أسباب ذلك أمام جميع تلاميذ السنة الدراسية . اذ يبدأ الاجتماع بكلمة افتتاح يلقيها المدرس ، ثم يوجه — الأستاذ أو زعيم السنة — الى التلميذ السؤال التالى :

ما هى الأسباب التى جعلتك تحصل على درجة ضعيف ؟
وعندما يبدأ التلميذ فى ابداء الحجج التى تحفظ ماء الحياء فى وجهه ، يقاطعه التلاميذ المجدين بنبرة حادة لازعة :

« انه لعار عليك أن تحصل على تعبير « ملاحظة » ، وليس من الجدارة أن تحاول التخلص من هذا بابداء أى علة مهما كانت » كان هذا أقل صور النقد ، والنقد الذاتى الذى كان منتشرا فى الاتحاد السوفييتى • بينوا لنا فى كل مناسبة ضرورة انزال العقاب الصارم على من يهمل ، فلا ينبغي أن تطيع الأوامر فحسب ، بل تكافح فى سبيل تعميقيها وتحسينها • اذ يوجد نوعان من الطاعة — هكذا قالوا لنا — نوع يعتمد على الخوف والاضطهاد وهو ما يطبق فى البلاد الرأسمالية ، والآخر وهو نظام الاتحاد السوفييتى يقوم على الاختبار والفهم ، وهما من أسس تشييد الاشتراكية (١) •

اهتموا اهتماما بالغاً بتعويد التلاميذ على النظام التربوى السوفييتى ، عن طريق اشغال روح المنافسة فى المدرسة ، فالفصل الذى يكون عدد الحاصلين فيه على ضعيف أو تعبير « ملاحظة » أقل ، يجتاز مرتبة أعلى من غيره • وتلعب الجولة دورا فاصلا فى ميدان الالتزام بعمل ما يطلب من التلاميذ •

جاءتنى تلميذة بعد أسبوعين من بدء الدراسة وقالت لى :

ألا تحب أن تلتحق بالجولة ؟

فقلت : طبعاً ! ولكنه ليس ضروريا بالنسبة لى ، فأنا عضو فى جولة برلين منذ عام ١٩٣٤ م •

قالت : عضويتك فى برلين لا تنفع هنا ، فيجب أن تنضم الى جولة الاتحاد السوفييتى •

قلت : حسناً ! أين أقيد اسمى ؟

قالت : مهلاً • مهلاً • لا تؤخذ الأمور هنا بمثل هذه السهولة ، فلا تستطيع أن تقيد اسمك ، فتصبح ببساطة عضواً ، فإذا كنت مستعداً للالتحاق بالجولة ، أقيد اسمك فى هذه القائمة ، ثم يعلن قبورك فى حفل مجموعة المدرسة ، بعد أن يقرأ زعيم الجولة أمامك القسم ، وتردده ورأته ، وبعدها تأخذ مندبل الجولة •

أقيم احتفال رسمى بعد هذه المقابلة بمدة قصيرة ، حيث دخلت

(١) فى هذا التقسيم مغالطة وقلب للحقائق ، ويبدو من استدراك المؤلف بقوله : « هكذا قالوا لنا » أنه لا يقر هذا التفسير • (م • شامة) •

(م ٣ - نظام الحكم الشيوعى)

مجموعة الجواله كلها فى صالة لحدسة بالخطوة العسكرية المنتظمة ،
ثم صف الأعضاء الجدد فى الوسط ، ووقف حامل العلم فى المقدمة ،
والعازفون على الآلات الموسيقية فى المكان المخصص لهم ، ثم بدأ زعيم
الجواله فى قراءة القسم :

« أتعهد مختاراً أمام الزميل ... (وكنا نردد القسم كلمة كلمة)
بأن أدافع باخلاص وشجاعة عن الطبقة العمالية ، وأن أحمى مبادئ
« لينين » المقدسة ، وأن أكون مثلاً يحتذى به فى تنفيذ واجبات الجواله » .
بعد الانتهاء من المراسيم العامة أقيم احتفال خاص لتقليدنا منديل
للجواله ، وربطه بسوار ، لمحت شعلة مرسومة عليه وعبارة : « كن
مستعداً دائماً » وهى الصيغة الروسية التى كنت أعرفها من قبل كتحية
للجواله . وتشير هيئة المنديل والسوار الى معانى رمزية ، فأطراف المنديل
الأحمر الثلاثة ترمز الى : الحزب ، ومنظمة الشباب الشيوعى ،
وشباب الجواله . والنتوءات الخشبية الخمسة المرسومة على السوار
تشير الى قارات الأرض الخمسة . وثلاث شعلات ترمز الى التنظيمات
الشيوعية العالمية الثلاث^(١) . وقد تقوسى الرمز الأخير فيما بعد فلم
يذكره الرسميون فى أحاديثهم .

تعلمنا تاريخ حياة « لينين » و « ستالين » وتاريخ الجواله
السوفييتية ، فعرفنا أن أول مجموعة للجواله تكونت فى عام ١٩٢٢م
ثم صدرت جريدة لها فى عام ١٩٢٥م وهى جريدة برافدا للجواله .
وتتضمن المنظمة — أى منظمة الجواله — الأطفال من ١١ — ١٦ سنة ،
بلغوا فى ذلك الوقت — وهو عام ١٩٣٥م — عشرة ملايين عضواً .
وتتلخص واجباتهم — هكذا علمونا — فى حماية المدرسة ، والمحافظة
على النظام ، وحماية المدرس ، وتربية النشء على الشعور بالمسئولية
تجاه الوطن الاشتراكى .

(١) يقصد بذلك الاتحادات التى جمعت الأحزاب الشيوعية فى العالم ،
فقد كان الأول بزعامة « كارل ماركس » ، وتفرق فى عام ١٨٧٢ م أثر الخلاف
بينه وبين « بوكانين » (١٨١٤ — ١٨٧٦) ثم أقيم الثلثى فى باريس عام
١٨٨٩ م لكنه تفرق أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتأسس الثالث بزعامة
روسيا ، وضم كل الأحزاب الاشتراكية فى العالم وكان مرتبطاً ارتباطاً كلياً
بالسلطة فى الاتحاد السوفييتى ، لكن فكرته انهارت فى عام ١٩٤٣ م بسبب
تحالف روسيا مع المعسكر الغربى فى الحرب العالمية الثانية . (م . شامة) .

ظهرت انحرافات في صفوف المنظمة في الماضي ، فقد قام بساريون بدعوة استهدفوا من وراءها اشراف المدرسة على توجيه الجواله ، ولم يكن هذا الاتجاه خطيرا جدا فقط — هكذا بينوا لنا — بل كان أيضا اتجاها معاديا للحزب ، وعدم وضع قيادة المدرسة في وضعها الصحيح ، ولم يقتصر الانحراف على اليساريين بل تعدادهم إلى اليمينيين المتخاذلين الذين رأوا أن منظمة الجواله يجب أن تكون ضمن ادارات المدرسة ولا يقل هذا الرأي خطرا عن سابقه ، لأن معناه تصفية هذا التنظيم • وقهرنا كلا الاتجاهين بقرار أبريل سنة ١٩٣٢م وهو « القضاء على الانحراف اليميني واليساري » •

درسنا مظاهر التقدم ، والمظاهر الطبيعية ، والأحوال التي تبدو لأول وهلة متشابهة ، ولكنها مختلفة كل الاختلاف ، تبعا للبيئة ، سواء كان ذلك في البلاد الرأسمالية أو في الاتحاد السوفييتي • انطبعت أفكارنا بعد مدة قصيرة بالتفسير الاشتراكي ، وجرى منا مجرى الدم في العروق ، واتحد بحواسنا لدرجة أننا لم نعد نرى غير هذا الاتجاه فمثلا :

— رفع أسعار المواد الغذائية في البلاد الرأسمالية دليل على الاستغلال الفاحش للعمال • وتفسر ظاهرة رفع أسعار المواد الغذائية في الاتحاد السوفييتي تفسيراً مغايراً تماما ، فهو « مساهمة ضرورية للاقتصاد الوطني في بناء الاشتراكية » •

— وجود المنازل الآيلة للسقوط في الغرب ، « علامة — هكذا فسرنا هذه الظاهرة — على انحطاط مستوى معيشة العمال » • ووجود مثل هذه المنازل في موسكو « أثر من آثار الماضي » •

كنا نمدح الوقائع أو نقبحها تبعا للبلد التي ظهرت فيها ، اذ طبعتنا التربية الاشتراكية بطريقة التفكير هذه ، التي رسخت في ذهني لدرجة أنه لم يكن يخطر ببالي مطلقا — على مدى أعوام طويلة — أن أفكر بأسلوب آخر •

بيت الأطفال رقم ٦

غير سير الأحداث في صيف عام ١٩٣٦م مجرى حياتي ، فقد كنت أسكن مع أمي في حجرة مفروشة في المنزل رقم ٦ بشوارع « جوركي » •

فساكنها الأصلي — وهو مهندس — مكلف بعمل في مدينة « اجاركا » وهي مدينة صغيرة في شمال سيبيريا ، يجري العمل فيها على قدم وساق لتشييدها وتطويرها . وقد انتهى الآن من عمله ، ويجب أن يعود الى موسكو . استمرت أمى أسابيع عديدة تبحث عن حجرة غيرها ، ولكن لم تجد ، وضاع عليها كثير من الفرص ، اما بسبب أننا ألمانيون ، أو أن أصحاب الشقق لا يريدون أن يسكن مع أمى أيضا غلام يبلغ الرابعة عشرة من عمره . ولهذا حاولت بكل ما تملك من جهد أن تجد لى مأوى . عادت أمى ذات يوم مسرورة الى البيت وقالت لى :

« عندي لك أخبار سارة ! سوف تدخل بيت الطلبة رقم ٦ ، التابع لرابطة الدفاع النمساوية ، وأعتقد أن جميع سبل الراحة ، سوف تهيأ لك هناك » .

لم تكن أمى مبالغة في هذا ، فالبيت في حارة « كلاشنى » رقم ١٢ ، وهو موقع في وسط المدينة ، بين ميدان « أربات » وبوابة « نيكيتسكى » . وكان ملكا لأحد أغنياء الروس السابقين ، يتميز على ما حوله من أبنية بفخامته وضخامته .

خصص هذا المبنى لأبناء رابطة الدفاع عن الشيوعية في النمسا ، اذ عندما انتكست ثورتهم في فبراير سنة ١٩٣٤ م ، لم يكن اللاجئون الى الاتحاد السوفييتى رجالا فقط — وهم مئات — بل كان معهم عديد من الأطفال ، بعضهم فقد والديه في الثورة .

ففى ١٨ أغسطس ١٩٣٤ — وهو يوم يحتفل به كل عام في بيت الطلبة — وصل قطار خاص الى حدود الاتحاد السوفييتى ، يحمل هؤلاء الأطفال ، فتوالت الاحتفالات بهم ، ونشرت كل الصحف السوفييتية مقالات ، وتحقيقات مطولة عنهم ، ثم دعاهم معسكر الجواله المسمى « أرتك » — وهو أحسن معسكر في الاتحاد السوفييتى ، ويتخذ شبه جزيرة القرم مقرا له لقضاء الصيف في القرم .

انتهت اقامتهم في القرم ، فعادوا الى موسكو ، وانخذوا المنزل رقم ١٢ في حارة « كلاشنى » مقرا دائما لهم . لم ينفرد أطفال الديمقراطيين الاشتراكيين النمساويين ، وأطفال أعضاء رابطة الدفاع النمساوية بهذا المنزل بل شاركهم فيه أيضا أطفال الشيوعيين الألمانين . لم يشبه هذا البيت — رغم تسميته المتواضعة « بيت الأطفال رقم ٦ » — بيوت الأطفال المعروفة في الاتحاد السوفييتى في أى شيء ،

فقد عمل مكانه. ، كما لو كانوا أعضاء وفود أجنبية ، جاءوا لزيارة الاتحاد السوفييتي لمدة قصيرة ، اذ تحاك ملابسهم في محلات الخياطة الممتازة ، وتقوم طبخة نمساوية بتجهيز الطعام لهم ، ولبيت أتبويس خاص ، يوصل الأطفال الى المدرسة في الصباح ، ويعود بهم بعد انتهاء اليوم الدراسي ، ويقوم لهم بسفرات أخرى . ولهم مستوصف خاص تحت رئاسة طبيبة ألمانية ، يراقب الحالة انصحية للأطفال ، فتقاس الحرارة كل صباح . وأينما ذهب أطفال أعضاء رابطة الدفاع ، يقابلون بالترحاب ، والابتهاج . وفي كل العروض الأولى في الأوبرا والمسارح ترسل لهم أعداد هائلة من التذاكر ، كانت تفيض عن الأشخاص الذين يريدون حضور تلك الحفلات .

كان المدير شيوعيا ألمانيا يدعى « بايس » ، والمشفون لاجئين سياسيين ، ألمانين ، ونموسويين ، أو من الروس الذين يتكلمون الألمانية بطلاقة ، اختارتهم اللجنة المركزية لمنظمة الشباب للقيام بهذا العمل . انقضى عامان على افتتاح هذا المقر ، عندما دخلته في ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦ م كان قد أدبر زمن الاحتفالات المتكررة ، والمقابلات الرسمية ، وبدأت فترة سحب الامتيازات ، اذ اختفى الأتبويس الخاص ، وعلى الأطفال أن يذهبوا الى المدرسة سيرا على الأقدام ، وتوقفت الرعاية الطبية ، فلم تقس الحرارة للأطفال يوميا ، كما كان من قبل ، وتلاشت أنواع الطعام الفاخر ، فصارت وجبات عادية ، وان كان لا يزال أحسن بكثير مما يقدم للأطفال الروس ، غير أنه لا زالت بعض الدعوات تقدم بين الحين والآخر ، ولكنها أقل بكثير من دعوات السنتين الأوليين ، كذلك حل مدير روسي محل الألماني .

تراوحت أعمار الأطفال في البيت — آنذاك — بين الثامنة والسادسة عشر ، فأطلق على تلاميذ السنوات الأربع الأولى « الصغار » وعلى تلاميذ الفصل الخامس والسادس « المتوسطون » وعلينا نحدد تلاميذ الفصل السابع ، والثامن ، والتاسع « الكبار » .

أيقظت وسائل النشاط المتعددة ميولنا الفطرية ، وطورتها ، اذ كان لأصحاب المواهب الموسيقية دروس خاصة ، وتكونت جمعية تمثيل لهواته ، أشرف عليها الممثل « فايلاندرود » ، وهو زنجي لاجيء في الاتحاد السوفييتي ، مثل في فيلم « السيرك » ، كما مثل في أفلام سوفيتية أخرى . أما نحن أصحاب الميول الأدبية ، فقد كونا جمعية

الأدب ، كان الأدباء الالمانيون الذين اتخذوا الاتحاد السوفييتي مقراً لهم يرفعونها ويوجهون أعضائها .

زارتنا الوفود الأجنبية ، وغالبا ما تفقد حالتنا ممثلون عن قطاعات الحزب الشيوعي الألماني ، أو النمسي ، واشترك معنا « كوبلنج » السكرتير الأول للحزب الشيوعي ، أو « فيلهلم بيك »^(١) في احتفالات أول مايو ، و ٧ نوفمبر ، ورأس السنة الميلادية . وكان لنا — بجانب الأعياد الرسمية — أعيادنا الخاصة : ١٢ نوفمبر ، وهو ذكرى ثورة رابطة الدفاع ، و ٨ أغسطس وهو يوم وصول الأطفال الى الاتحاد السوفييتي . وتقدم الجوائز في هذه الاحتفالات للتلاميذ المتفوقين ، وكانت جوائز تفوق بكثير ما كان يقدم في بيوت الطلبة السوفييت . كانت توجه إلينا الدعوة لحضور الاحتفالات الرسمية الكبرى في موسكو ، حيث كنا نستقبل « كضيوف الشرف » بالهتاف والتصفيق من كل الحاضرين .

كذلك كانت لنا بعض الحقوق الخاصة في اظهار الشعارات السياسية ، فقد اختلفت الشعارات الملصقة على الحوائط عن الشعارات المعروفة في الاتحاد السوفييتي : اشادة بالمناضلين الالمانيين والنمسيين ضد النازية ، والفاشيستيّة ، أو تحية للفرق العالمية التي اشتركت في الحرب الأسبانية ، كذلك لم تعلق صورة أحد من أعضاء المكتب السياسي السوفييتي ، بجانب صورة « لينين » و « ستالين » ، بل عُلقت صورة « يوحنا كوبلنج » و « ديمتروف » و « أرنست تيلمان » و « فيلهلم بيك » كنا مشهورين في موسكو آنذاك ، فاذا خرجنا نتجول في المساء — وغالبا ما كانت هيئتنا تبدو أحسن بكثير من الأطفال السوفييت — سمعنا أحيانا من يقول لصاحبه :

انظر ! هؤلاء أطفال رابطة الدفاع . كنا سعداء ، ولم نكن ندرك أحوال الأطفال السوفييت .

كانت علاقتنا بالمشرفين والمدير الروسي طيبة ، ما طلبنا شيئا إلا وسارعوا بتنفيذه ، كلما كان ذلك ممكنا . كذلك تكون منا عن طريق

(١) ١٨٧٦ - ١٩٦٠ م ، انضم في ١٨٩٥ للحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا ، ثم للحزب الشيوعي في عام ١٩٢٨ م . نفى الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٣ م ، وأصبح عام ١٩٤٥ م سكرتيرا للحزب الشيوعي الألماني ، ثم تولى رئاسة ألمانيا الديمقراطية في عام ١٩٤٩ م . (م . شامة ٢٠)

لانتخاب مجلس شورى ، كان له نوع من حق تقرير المصير (يقصد بذلك أنه كان يتمتع بنوع من المشاركة فى ادارة البيت) .

كان اتصالنا بالعالم الخارجى عن طريق مكتبة الأدب الأجنبى فى « ستوليشنيكوف برويلوك » على بعد خمس عشرة دقيقة من بيتنا . ضمت هذه المكتبة — التى وضعت فى كنيسة صغيرة ، أغلقت فى وجه المصلين فى السنوات الأولى بعد قيام الثورة — كتباً ألمانية ، وإنجليزية ، وفرنسية ، وأسبانية ، وإيطالية .

كتب أذهب كل يوم تقريباً ، مع أصدقائى ، وأقضى بضع ساعات فى قاعة المطالعة ، فقد كان يوجد هناك — بجانب الكتب الألمانية القديمة — كثير من الكتب الحديثة لـ « فرانز فيرفيل » و « توماس مان » و « هاينريش مان » و « يعقوب فاسرمان » و « ستيفان زفايج » و « ماكس برود » و « اميل لودفيج » و « ليون فوختفانجر » و « أرنولد زفايج » ولكل الكتاب المنفيين الذين يتعاطفون مع الاتحاد السوفييتى أمثال : « يوجنا ر . بيخر » و « آنا سيجرس » و « فريدريش فولف » و « فريتش إربين بيك » و « بودو أوزى » و « إيريش فاينر » و « فيلى بيريديل » .

بدأت لنا قاعة المطالعة فى أول الأمر ، كما لو كانت فردوساً ، ولكن سرعان ما تعرفت على الظلال الداكنة فيها ، اذ عندما تناولت كتاباً لـ « ترافن » (١) . أسقط فى يدي ، وعقدت الدهشة لسانى ، ذلك أنى وجدت فقرات بأكملها لا تقرأ ، لأن الرقابة طبعت على الحروف حبراً من نوع خاص يجعل القراءة متعسرة ، ولا يفهم القارئ أنها مطموسة أو ممسوحة بل يخيل اليه أنها من الإهمال فى الطبع . باءت محاولاتي — فمثلاً كنت أضع الصفحة فى مواجهة النور الساطع لقراءتها — بالفشل ، فقد كانت هندسة وضع الحبر على الحروف فى غاية الدقة والاتقان . لم تستعمل الرقابة هذه الطريقة على الكتب فقط بل فى الصحف والمجلات ، وكذلك أيضاً حيث تتنافى رقابتهم مع المنطق ، اذ يمارسونها مع المجلات التى يصدرها الحزب الشيوعى الألمانى ، أو يصدرها أشخاص يتعاطفون معه . كنا نقرأ فى قاعة المطالعة — ما عدا المجلات السوفييتية —

(١) أديب يقال انه ألمانى الأصل ولد فى عام ١٨٨٢ م وكتب بثلاث لغات : الألمانية ، والفرنسية ، والأسبانية . (م . شامة) .

المجلة التي كانت تصدر آنذاك في تشيكوسلوفاكيا : « العلم الأحمر » ،
والصحيفة اليومية لباريسية (Die neue أو Periser Tageblatt -
Weltbühne) وهي صحف تبير في اتجاه الخط السوفييتي ، ومع
ذلك طمست فقرات منها على النحو السابق ، لأنها تتحدث عن أحداث
وقعت في الاتحاد السوفييتي ، ولم تنشر في صحفها .

لم نهتم — نحن الذين أطلق عليهم في بيت الطلبة اسم « الكبار » —
فقط بالكتب الأدبية ، بل بالمطبوعات والأحداث السياسية أيضا ، ولا يعد
هذا من الأمور المستغربة ، إذ تتدخل التنظيمات السياسية في توجيه
الحياة في الاتحاد السوفييتي ، على نحو لا يوجد في أى بلد آخر في
العالم ، فمن النادر أن يمر حدث ، دون أن تثار حوله ضجة إعلامية ،
فتنظم مسيرات شعبية ، وت عقد مؤتمرات ، واجتماعات ، وتنتشر الصحف
أخبارها بالبنط العريض في صفحاتها الأولى ، وتذيعها محطات الاذاعة ،
والتلفزيون بأسلوب تجعلها تغطي على غيرها من الأحداث التي لا تخدم
أهداف الأيديولوجية الاشتراكية .

تدل معظم التقارير الغربية على أن حالة المواطن السوفييتي الذي
كتب عليه أن يعيش في ظل هذا الاطار الاعلامي ، تدعو الى الأسى
والحسرة ، ولئن صح هذا بالنسبة لقطاع كبير من الجماهير ، فليس
هو حال جميعهم ، لأن نسبة كبيرة من الشباب تهتم بالمشاكل السياسية ،
وتحاول بمجهودها الذاتي أن تصل الى تصور خاص لما يدور حولها ،
وتكوين رأى خاص غيه ، لم ينتظر معظم المجموعة المتقدمة في السن —
من ١٤ الى ١٧ — في بيت الطلبة ، حتى يقدم لها المسائل السياسية —
طبقا للاتجاه الرسمي في الدولة — في المدرسة أو في معاهد منظمة الشباب
« الكسمول » ، بل اهتمت قبل ذلك في أوقات فراغها بقراءة الماركسية
اللينينية . كنا اذا فرغنا من عمل واجباتنا المنزلية ، قرأنا الكتب
السياسية التي كنا نستطيع الحصول عليها لـ « ماركس » و « انجلز »
و « لينين » و « ستالين » . لم يجبرنا أحد على قراءتها ، ولم يطلب منا
أحد أن نتثقف سياسيا ، وانما كان ذلك بحريتنا واختيارنا ، دفعنا اليه
اهتمامنا بالأيديولوجية الاشتراكية ، اهتماما جعلنا نناقش فيما قرأناه
أثناء تجولنا في شوارع موسكو .

لم يكن عندنا — نحن سكان المنزل رقم ١٢ في حارة « كلاشنى » —
فكرة عما كان يدور في ذلك الوقت على مسرح الأحداث في الاتحاد

السيوفيتي ، غير أنه من الصعب جدا أن يعيش المرء في هذه الدولة ، دون أن يصيبه ما يكدر عليه صفو الحياة ، إذ لا توجد بقعة ينزل فيها الإنسان ، ولا مكان يستطيع المرء أن يهتم فيه بحياته الخاصة دون أن تلحقه شظايا الأحداث .

* * *

القبض على أمي

عندما دخلت بيت الطلبة رقم ٦ ، أقامت أمي في « زنزانة » صغيرة حقيرة — فلا يستطيع المرء أن يسميها حجرة — كانت في منزل قديم يقع بالقرب من بوابة « نيكيتسكى » • والحقيقة أن تسميتها « زنزانة » فيه شيء من المبالغة ، إذ هي عبارة عن جزء صغير من دهليز « ممر » مسور بحائط من الخشب ردىء النوع .

اهتدت أمي الى هذا المأوى الحقير ، بعد طول بحث كاد يبعث فيها اليأس ، لذا قبلته ورضيت به • كانت تلتقي بى مرة أو مرتين في الأسبوع ، نتجول فيها عبر شوارع موسكو ، فكان وقتا جميلا ، فكما كنت معجبا ببيت الطلبة ، كذلك كنت أنتظر بفارغ الصبر لقاء أمي كل مرة ، فقد كان يسرنى رؤيتها والحديث معها .

التقيت بها في ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ م — أى بعد دخولى بيت الطلبة بأسابيع قليلة — وبينما كنا نسير في هذا اليوم المطير في شوارع موسكو نأكل حلوى اشتريناها من محل تعودنا أن نشترى منه دائما « حلويات شرقية » عند بوابة « نيكيتسكى » قلت لها : لى رجاء آخر عندك يا أمي ! قالت : وما هو يا بنى ؟

قلت : أنت تعلمين أن أصعب شيء عندي ، هو مادة الرسم الميكانيكى ! ونحن مكلفون بأن نرسم رسما صعبا جدا ، ويجب أن ننتهى منه بعد غد ، ولن أنجح في رسمه رسما صحيحا مهما بذلت من مجهود .

وعدتنى أمي أن تعطينى الرسم كاملا غدا ، ثم اضطرت الى توديعها حتى لا أتأخر عن الموعد المسموح به خارج بيت الطلبة .

نظرت الى ورائى ، فرأيت أمي ، لازالت تقف في مكانها تتأبط حقيبتها ، ولوحة الرسم المطلوبة ، وتلوح لى مبتسمة .

وقفت في اليوم التالى ، أنتظرها في المكان الذى حددناه للقاءنا ،

لم تكن أُمى هناك • انتظرت ، مضت عشر دقائق • ربع ساعة • نصف ساعة ، فقررت أن أذهب إليها في البيت ، في تلك « الزنزانة » الخشبية • ربما تكون مريضة ، هذا ما دار في رأسي ! دققت الجرس بعصبية ، ففتح لي أحد السكان ، ونظر الى بدهشة ، ثم تركنى أدخل • اخترقت الممر الى أن وصلت الى « الحجرة » ، فوقفت مندهشاً أمام الهيكل الخشبي الرديء • ماذا أرى ؟ الباب مغلق ، ومختوم بالشمع الأحمر ، وكذلك الألواح الخشبية مختومة أيضاً بالشمع الأحمر •

لم أفهم شيئاً أكثر من هذا • وفي هذه اللحظة فتح باب الحجرة المجاورة :

— ماذا تريد ؟

— أريد أُمى ، فهي تسكن هنا •

— لم تعد أملك تسكن هنا •

— كيف هذا ؟

— اختفت •

— كيف ؟ ألم تترك شيئاً ؟

— لا • لم تترك شيئاً •

— اختفت فجأة !

— يحتمل أنها ذهبت للقيام بمهمة ، وستعود قريباً ، فعد الى منزلك

بهذوء •

رجعت الى بيت الطلبة مهموما ومضطرباً ، فقد عشت مدة طويلة في روسيا تكفيني أن أعلم : ما معنى القيام بمهمة ! فالتكليف الفجائي من مكتب رسمي ، هو قيام بعمل معين في مكان آخر • ولكن ممن حصلت أُمى على هذا الأمر الرسمي ؟ والى أين سافرت ؟ ومتى تعود ؟ دارت هذه الأفكار في ذهني عندما وصلت الى بيت الطلبة ، واستولت على عقلي التأويلات ، والاحتمالات : يحتمل أنها تلقت أمراً باعطاء دروس في اللغة الأجنبية ، لمن ؟ لضباط الجيش ؟ وفي هذه الحالة ربما لا يسمح لها بالكتابة لي عن طبيعة عملها • هدأني هذا الافتراض فهباً لي الجو لعمل انرسم الميكانيكي •

مر أسبوع وراء آخر ، وأنا أتردد على مسكن والدتي ، ولكن لم أستطع في كل مرة الا رمي الشمع الأحمر بنظراتي المتسائلة عن مصير أُمى • وكان سكان الحجرة المجاورة يقابلونني في بادئ الأمر بوجه غير

عبوس ، ولكن سرعان ما تغيروا ، وقال لى أحدهم بنبرة حادة تقترب من الغضب :

لماذا تعاود المجيء هنا . لقد قلنا لك ان أملك في مهمة ، وعندما تعود سنخبرك ، فلست في حاجة الى المجيء هنا .

لم تطأ قدمي هذا المنزل بعدها . وكنت أقابل أصدقاء والدتي ، فلا يخبرونى هم أيضا الا بأنها في مهمة ، وبدا لى أن لا أحد يعرف أين هى ! قال أحدهم :

لقد سمعت أنها في « تيفليس » .

قلت : ولكن ، لماذا لم تكتب لى ؟

فأجاب : توجد مهمات رسمية ، لا يستطيع المرء فيها أن يكتب شيئا . هذا ما فهمته ، ولأنى سمعت هذا التفسير مرارا وتكرارا لم أعد أسأل أحد .

لم يمض وقت طويل على اختفاء أمى ، عندما وقعت حوادث أخرى ، عكرت علينا هدوءنا في بيت الطلبة ، ففي يناير ١٩٣٧ م حوكم « أنصار التروتسكى » ، ونشرت وسائل الاعلام على لسان المدعى العام ، أنها منظمة متآمرة ضد نظام الحكم ، ومن بين زعمائها :

« بياتاكوف » و « رادوك » و « سوكونكوف » و « سيربيرياكوف » . وكنا نعتبرهم جميعا — وكانوا أعضاء بارزين في الحزب — مثالا عليا للبلشفيين .

أثرت هذه القضية على كل أنشطة الدولة ، فغيرت اتجاهاتها ، فالجريدة الألمانية التى كانت تكتب — وهو صورة طبق الأصل لما ينشر في برافدا — عن نجاح البناء الاشتراكى ، وتتنشر صوراً للمصانع الجديدة ، والمزارع الجماعية المثالية ، غيرت اتجاهها ، وتحولت الى مسرح لتوجيه أفضع الشتائم وأشنعها « للجواسيس التروتسكيين » . ومن بين الأوصاف التى كانت تكتب بالخط العريض : « المنافقون » « خونة الوطن » « المنتكسون الى الرأسمالية » .

كذلك تحول أسلوب التعليم في المدرسة ليتناسب مع تيار القضية السياسية التى كانت تشغل رأى العام ، فانساق مع وسائل الاعلام في الهجوم على « الخونة » و « أعداء الشعب » ، وامتدح — بل وشجع — محاكمتهم وانزال أشد العقوبات بهم .

أخبرونا أن هؤلاء الذين كانوا الى وقت قريب زعماء الحزب

النموذجيين هم في الحقيقة جواسيس ، وخونة ، ومنافقون ، كانوا على اتصال سرى بألمانيا الهتلرية واليابان ، واستهدفوا من وراء ذلك اعطاء ألمانيا منطقة أوكرانيا ، واعطاء اليابان المنطقة الشرقية السوفييتية ، واعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفييتي .

كان المتهمون — هكذا قالوا لنا — منذ سنوات مخربين ، وخونة ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من المهارة والحذق بحيث استطاعوا خداع من حولهم . وقد تمكنوا عن طريق تقلدهم مناصب قيادية أن يخربوا خطط الانتاج ، فأشعل تنظيمهم السرى الحرائق في المصانع ، ووضع المتفجرات هنا ، وهناك ، وارتركبوا أنواعا عديدة من الجرائم : تخريب قطارات السكك الحديدية ، وموت العمال ، والفلاحين بالجرائم بواسطة مراكز الصحة والوحدات العلاجية للأمراض المعدية ، وفي نفس الوقت كونوا جهازا اربابيا لاغتيال قادة الحزب والحكومة السوفييتية .

انتهت القضية في ٣٠ يناير ١٩٣٧ م ، وحكم على « بياتاكوف » و « سيربيرياكوف » وآخرين بالاعدام ، وعلى « سوكونكوف » و « رادوك » بالسجن عشر سنوات . ونشرت الصحف صورا لمؤتمرات العمال في المصانع والمزارع الجماعية ، يرفعون فيها أيديهم ، اشارة الى استحسانهم ، وتأييدهم الأحكام الصادرة على أعداء الشعب ، واندلعت مظاهرات ضخمة تهتف :

« اقتلوا الكلاب الفاشيين » « امسحوا أعداء الشعب من الوجود »

لم نستطع آنذاك أن نقدر أهمية هذه القضية ، فقد كنا — سكان بيت الطلبة — نعيش ، كما لو كنا في جزيرة يخيم عليها الهدوء والسكينة ، ولم نعلم شيئا عن موجة الاعتقالات الجماعية ، التي نفذها رجال المخابرات في ذلك الوقت . كنا نذهب الى المدرسة كالعادة ، نحضر الدروس ، وناقشها ، ونقرأ الكتب ، لكننا لاحظنا التغيير في دروس المجتمع ، ووجهت اليها تحذيرات متعددة — في تجمعات المدرسة ، وفي بيت الطلبة — من الوقوع في حبال الخونة ، وأعداء الشعب ، فيجب علينا أن نباعد عن أعمالهم الشائنة .

بدأت أكبر موجة اعتقال في خريف عام ١٩٣٦ ، ولم نشعر بها الا في أوائل عام ١٩٣٧ م عندما أصبح من المستحيل عدم تسرب أخبارها اليها ، فارتفع من أمامنا الحاجز الذي فصل بيننا وبين ما يجري في الدولة .

لم تبتعد موجة الاعتقالات عن مدرسة « كارل ليكنيشت » ، فقد بدأ من أول مارس ١٩٣٧ م اعتقال المدرسين ، فاخترى واحد وراء الآخر . اختفى أولا مدرس اللغة الألمانية وكان يدعى « جرشنيسكى » شيوعى ألمانى تخرج فى مدرسة « كارل ماركس » الواقعة فى حى « كولونيا الجديدة » فى برلين ، جاء الى الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩٣٣ م . ثم تبعه مدرس التاريخ والجغرافيا : « لويسين » وهو أيضا خريج مدرسة « كارل ماركس » السالفة الذكر . وأخيرا قبض على مدرس الرياضة : « كاوفمان » .

لم يقتصر الاعتقال على مدرسى فصلنا فقط — على هذا النحو — بل شمل مدرسى جميع الفصول الأخرى . أنك التعب المدرسين الذين لم يعتقلوا — وكانوا قلة — ، لأنهم ألزموا بأخذ حصص اخوانهم المعتقلين . ولم يكن مصدر تعبهم كثرة العمل فقط ، بل ظروف الارهاب التى كانوا يعيشون فيها أثلفت أعصابهم أيضا . اذ أدرك كل منهم أن من المحتمل أن يقبض عليه اليوم أو غدا ، ولهذا فقدوا الطمأنينة ، فأدوا دروسهم بعناء ومشقة ، ولم يكن هذا خافيا على التلاميذ .

أثر عليهم خوفهم ، فأوقعهم أحيانا فى أخطاء ، دون أن يدركوا ما يقولون ، فذات مرة — عندما كنا فى حصة المبادئ الدستورية — تحدث المدرس بحماس عن معالم الديمقراطية فى الدستور ، وعن فضائل الوحدة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وأراد أن يستشهد فى تفسيره بجملة « ستالين » المشهورة :

« ولكن هؤلاء الذين يفكرون فى مباغطة بلدنا ، سيمزقون اربا ، ويقضى على آمالهم وتغرس أنوفهم الخنزيرية (أى التى تشبه أنوف الخنازير) فى حديقة الاتحاد السوفييتى » .
ولكنه أخطأ فى هذه الجملة بالذات ، فرفع صوته عاليا فى الحجرة قائلا : « ... وبهذا يقضى على آمالهم ، وتغرس أنوف السوفييت فى حديقة خنازيرنا » .

تهامس التلاميذ ، وانحلت أعصاب الآخرين . وكذت منهم ، ثم ماذا ؟ ماذا يحدث بعد الآن ؟

لاحظ المدرس خطأه بعد ثوان ، فاصفر وجهه ، وارتعشت جميع أعضاء جسمه ، فظهر عليه الارتباك الشديد ، حاول بذل كل ما فى وسعه — كمن يعانى من سكرات الموت — للسيطرة على أعصابه حتى انتهت

الحصة • رثينا لحاله ، فقد كنا نعلم أن نهايته في هذه الغلطة ، لأن من المسلم به أنه يجب أن يقوم نفسه بتبليغ الحزب بهذه الحادثة • اختفى هذا المدرس بعد أيام قليلة ، ولم نره بعدها ، ولم نسمع عنه شيئاً إطلاقاً • أدينا الامتحان في ظل هذا الرعب ، رعب القبض ، والاعتقال ، والتطهير ، جلسنا في الفصل صباح يوم من أيام شهر يونيو ، كى نؤدى امتحانا تحريريا في اللغة الألمانية ، وكما هى العادة في كل امتحان ، فقد استولى الاضطراب علينا عندما دخل المدرس ، ابتداء بتسجيل الحاضرين ، ثم شرح لنا كيفية الامتحان :

« سأقرأ عليكم نصا من كتاب أحد الكتاب الذين كرسوا جهودهم ضد الفاشية ، ألا وهو « جورج بورن » وعليكم أن تكتبوا ما أقرأه بأسلوبكم الخاص • والزمن المحدد هو ثلاث ساعات ، أظن إنه كاف للتفكير والكتابة في هدوء تام » •

ثم فتح حقيبته ليخرج كتاب « بورن » ، وفجأة انتشر الهمس في أحد أركان الحجرة ، فرفع المدرس رأسه قائلاً : ماذا حدث ؟ وقف أحد التلاميذ وقال :

« أيها الرفيق المدرس ، لقد روى والدى أنه قد تم القبض منذ أيام قليلة على « جورج بورن » بتهمة أنه من أعداء الشعب » • اسود وجه المدرس وأعاد الكتاب الى الحقيبة ، وفرائضه ترتعد ، وقلب محتوياتها ، وأخرج كتابا آخر ، ثم أعاده الى الحقيبة بسرعة خاطفة ، وفي النهاية أخرج كتابا من تأليف « كيش » ، الذى كان يقيم في ذلك الوقت في المكسيك ، يمكن أن يؤخذ منه نص لأنه لم يصبح بعد من أعداء الشعب !

هدأ روع المدرس نوعا ما ، وتمالك أعصابه ، ثم قال :

« لا تؤاخذونى على هذا الخطأ الفادح ، فمن المسلم به أنه لا يجوز لنا أن نرجع الى كتاب أحد المعادين للشعب ، الذى يأخذ الآن جزاء ما اقترف من اثم ، وبدلاً من هذا سأقرأ عليكم تقريراً صحفياً كتبه « اجون ارمن كيش » ، وعليكم أن تعيدوا كتابته بأسلوبكم » • قرأ علينا النص ، فكان صوته يرتعش ، اذ كان خائفاً أكثر منا نحن الذين نؤدى الامتحان •

وصلت حركة التطهير الى ذروتها في أيام الامتحان ، أى في يونيو

سنة ١٩٣٧ م • ففوجئنا — وفوجيء معنا أيضا كل الشعب السوفييتى — فى أوائل يونيو بحادثة هزت أعصابنا وهى :

اعتدى أحد أساتذة الطب المشهورين فى الاتحاد السوفييتى ، وهو الأستاذ « بليتنوف » ، على المواطنة السوفييتية « ب » اعتداء فاحشا ، وأدانه وكيل النيابة فى هذه القضية • ولأن الصحافة السوفييتية لا تذكر أطلاقا المسائل الجنسية ، وما يتعلق بها من فاحشة وغيرها ، فقد استدعى هذا الأمر دهشة عامة لدرجة أن « برافدا » وصفت ظروف الاعتداء وملاساته ، وأشارت بنوع خاص الى أن الأستاذ عض المواطنة « ب » فى ثدييها مرارا ، مما ألحق بها تشوهات لا تبرأ منها أبدا •

اتبع هذا مباشرة النتائج المعتادة لمثل هذه القضية فى معاهد الطب المختلفة ضد « منتهك الأعراض » و « الشهوانى بليتنوف » وأعلن أنه ستجرى محاكمة علنية ، انتظرها الشعب بفارغ الصبر ، ولكن مضى ما يقرب من عام ولم يسمع شئ عن هذه القضية ، بل حلت محلها أخبار أخرى ، قرأها الناس يوميا فى الجرائد ، وسمعوها فى المنتديات والمجتمعات :

« تزداد المخابرات العامة قوة ، ويكبر سلطانها باستمرار » ، ولها من المهارة ما يمكنها من تتبع كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، فلتترعد فرائص الجواسيس والخونة ، وسفاكى الدماء • ان المخابرات العامة ستثبت مدى قدرتها وكفاءتها » •

نشر هذا بعدها بأيام قليلة — على وجه التحديد فى ١١ يونية سنة ١٩٣٧ م — اكتشاف مؤامرة — مزعومة على ما بدا لى — كانت بزعامه قائد الجيش ، مارشال « توخاتشفسكى » وسبعة جنرالات آخرين من الجيش الأحمر • اتهم هؤلاء — وكانوا يتولون أعلى المناصب فى الجيش ، وهم من الأعضاء القدامى فى الحزب ، ومن الزعماء البارزين فى الحزب والدولة — بأنهم جواسيس لحدى القوى الأجنبية • وأنهم مارسوا أعمالا تخريبية فى الجيش رغبة فى اضعافه ، وأنهم أرادوا — هكذا ادعوا عليهم — أن يمهّدوا السبيل لهزيمة الجيش الأحمر ، كى يمكنوا القوى الاقطاعية والرأسمالية من العودة الى السيطرة على الاتحاد السوفييتى • تعودنا فى الشهور الأخيرة على أشياء كثيرة ، عن طريق القضايا التى تهدد تهديدا مستمرا — وتطعن بأسلوب لا حياة فيه — من يراد تنحيتهم ، وتصفهم بـ « الأعداء الألداء » و « الخونة » و « أعداء الحزب » -

و « أعداء الشعب » و « الجواسيس » و « الانتهازيين » و « الغادرين » و « المخربين » ، اذ دأبت الصحف على التشهير بهم ، وتحذير الشعب من أساليبهم الخادعة ، وطلبت من كل فرد أن يكون يقظا ، يحرس الاشتراكية من أعدائها • غير أن اكتشاف مؤامرة « توخاتفسكى » المزعومة أعطى على ما سبقها من قضايا ، اذ لم يضارعا — في التحويل بها وتضخيم ما ارتكبه زعماءها — أى حدث وقع قبلها حتى الآن •

نشرت جريدة برافدا في ١٢ يونية سنة ١٩٣٧ م حوادث هذه القضية في خمس صفحات كاملة من صفحاتها الستة • وكانت المرة الوحيدة في تاريخ الصحافة السوفييتية أن يتصدر كل صفحة من الجريد عنوان بالخط العريض : الجواسيس ، — العلماء الحقراء للفاشية — خونة الوطن : اقتلوهم !

كان هذا عنوان الصفحة الأولى ، أما الصفحة الثانية فعنوانها بالخط العريض :

الجواسيس الذين لطخوا شرف الخدمة العسكرية خونة الوطن والجيش الأحمر : اقتلوهم !

أما الصفحة الثالثة فكان عنوانها :

جواسيس ، أولئك الذين أرادوا تقسيم وطننا ، واعادة قوى الاقطاع والرأسمالية الى الاتحاد السوفييتى : اقتلوهم !
وفي صدر الصفحة الرابعة :

جواسيس ، أولئك الذين مارسوا التخريب ليقضوا على قوة الجيش الأحمر : اقتلوهم !

وفي الصفحة الخامسة :

جواسيس ، أولئك الذين دبروا لهزيمة الجيش الأحمر : اقتلوهم !
كان عنوان المقال الافتتاحي :

للجواسيس ، للجاسوسية ، وخيانة الوطن •
وختم بتلك الكلمة التى تتكرر مئات المرات :

ستثبت المخابرات العامة السوفييتية مدى قدرتها وكفاءتها • أسرفت الجريدة — على نحو يكاد يتكرر فى كل سطر فيها — فى المطالبة بسرعة الحكم فى هذه القضية ، وهاجعت الخائنين — على حد وصفها — بطريقة مسفهة ، وصبت عليهم اللعنات • وجاءت مطالبة الجماهير بضرورة توقيع أقصى العقوبات على المتهمين متأخرة ، فقد

نشر خبر صغير مختصر في زاوية أحد أعمدة الجريدة أن «توخاتشفسكى» وزملاءه قد حكم عليهم في مساء اليوم السابق بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ الحكم .

رغم أن هذه الأحداث لم تمسنا مساً مباشراً ، فقد وصل أثرها إلى بيت الطلبة أيضاً ، ففي مساء اليوم الذي حكم فيه على «توخاتشفسكى» جاء أحد التلاميذ — ولم يكن من مجموعة «الكبار» — فعمره كان يتراوح بين ثلاثة عشر وأربعة عشر — مكفها ومضطرباً وقال لى :

— ماذا أفعل ؟ لقد ارتكبت خطأ كبيراً !

— ماذا فعلت ؟

— كتبت في امتحان الانشاء في موضوع الجيش الأحمر ، فرفعت من قدر «توخاتشفسكى» بالذات .

— أكتب هذا في ورقة الاجابة ؟

— نعم ، وأسوأ ما في الأمر أنني ختمت موضوعى بهذه الجملة : «لقد انتصر الجيش الأحمر في الحرب الأهلية ، بفضل قيادة «ستالين» و «توخاتشفسكى» ولن يهزم أبدا ما دام هذان الزعيمان يتوليان قيادته» ماذا سيحدث لى ؟

كان الحظ حليفه ، فلم يحدث له شيئاً ، وان ظل فترة أسير الخوف ، وشاركه في هذا كثير من التلاميذ — وعلى الأخص «الكبار» — فقد علت وجوههم في تلك الأيام سمات القلق والاضطراب ، والخوف مما يأتى به الغد ولم يتحرروا من هذا الكابوس الا عندما وجهت اليهم الدعوة للاجتماع ذات مساء ، وأعلن عليهم خبر ، أدخل عليهم السرور وذلك حين قال المتحدث :

«سنسافر في هذا الصيف الى القرم للاستجمام»

حدث لى في نفس المساء حادث ، لم أفهم مغزاه ، اذ اتجه الى أحد المشرفين في البيت ، ورمقنى بنظرات حادة ، ثم مد الى يده ، وسلم بحرارة ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، لم أفهم شيئاً اطلاقاً من هذه الحركة ، وسألت نفسى : ماذا جرى له ! ولكن سرعان ما تناسيت هذا ، ولم أفكر فيه .

مضى أسبوع ونحن منهمكون في الاستعداد للسفر ، وقبل الرحيل

بيوم واحد ، جاعنى نفس المشرف مرة أخرى ، ولكنه كان مبتيسما فى هذه المرة وقال : « لقد عاد كل شيء الى ما يرام » وربت على كتفى .

فقلت له : « لم أفهم شيئا ! ماذا حدث ؟ »

أجابنى مترددا : كانت مسألة شائكة ، ولكنها وضحت الآن ، لا تطل التفكير فى هذا ، واذهب لتعد حقيبتك ، فنحن مسافرون الى القرم .

نزلنا فى مساكن جميلة ، أقيمت فى منطقة « جورسوف » على شاطئ البحر الأسود ، وقضينا فيها ، أياما جميلة ، اذ سحرتنا المناظر الطبيعية . بنخيلها ، وأزهارها ، وحشائشها ، ومياهها المنعشة ، وأضفت علينا جوا هادئا ، خيل الينا فيه ، أن ما مر بنا من أحداث فى الشهر الماضى ، كان حلما مزعجا ، فاعتقدنا — وتمنينا — أن الأمور ستعود الى حالتها الطبيعية ، وأننا عندما نعود الى موسكو ، سنعيش كما كنا قبل بضعة شهور .

أصابنى المرض بعد ثلاثة أسابيع من وصولنا الى « جورسوف » ، فلزمت الفراش ، وكنت تحت رعاية طبية ألمانية ، كانت تتفانى فى خدمتنا . وعندما تحسنت حالتى ، جاءتنى هذه الطبية فوقفت عند السرير وقالت :

جاءتك رسالة ، هاهى ذى !

تناولتها ، فقرأتها وأنا مضطرب الأنفاس ، فقد كانت من أمى ، أرسلتها الى بيت الطلبة ، فحولوها الى حيث نقيم فى القرم . قرأتها فى المكان المخصص لكتابة عنوان المرسل (L.P. Schor, Tschibiju, Komi ASSR) وتحتها هذه الملاحظة (KRTD) خمسة أعوام .

أدركت الآن ما حدث ، فوقع على هذا الخبر كالصاعقة :

لم تكن أمى فى مهمة ، كما كنت أتصور ، بل قبض عليها ، فأنا أعلم أن حرفى (L.P.) هما اختصار لاسم معسكر العمل ، والحروف (KRTD) اختصار لكلمة : نشاط هدام ضد الثورة .

فهمت الآن أيضا :

لماذا أغلقت الحجرة بالشمع الأحمر !

ولماذا كان جيرانها ينظرون الى نظرة ريبة وشك !

وأن أصدقائنا أوهمونى أنها فى مهمة رسمية حتى لا أنزعج .

بلغ تأنيب الضمير ذروته ، عندما قارنت بين حالتى وبين ما تعانيه

الآن فى معسكرات العمل ! مضى عليها الآن عشرة أشهر فى السجن ، وتعيش تحت ظروف قاسية فى القطب الشمالى ، أما أنا فأقيم فى بيت الطلبة فى الاتحاد السوفييتى ، أتمتع بالكاماليات ، وأستجم الآن هنا فى ظل نخيل القرم •

اشتركت مكرها فى الرحلات الى « سمفروبول » و « ليفاديا » ، ر « يالتا » وفى زيارة الأماكن الأثرية ، وفى تسلق الجبال ، فقد كانت صورة أمى ماثلة — فى معظم الأوقات — أمام عيني ، وكنت أفكر مكتئبا فيما حدث لها ، وأسائل نفسى : ترى ! ماذا يفعلون معها فى هذه اللحظة ! لم أخبر أحدا بما أوضحته الرسالة من القبض على أمى ، ونفيها ولكنى كنت متأكدا أن مدير بيت الطلبة ، والمشرفين يعلمون ذلك • وقبل رحيلنا بوقت قصير تذكرت مرة أخرى موقف المشرف الذى لم أفهمه وتساءلت : هل كانت له علاقة ما بالقبض على أمى ؟ حاولت أن أتحدث معه حول هذا الموضوع ، ولكنه رفض ، ولم أفهم موقفه الا بعد مضى عام آخر • لم تكن أمى هى الوحيدة — من بين آباء وأمهات المقيمين فى بيت الطلبة — المقبوض عليها ، بل كان هناك عدد يتراوح بين ثمانية ، وعشرة من التلاميذ ، دخل آباؤهم أو أمهاتهم — أو كلاهما — المعتقل • ثم صدر قرار يقضى بأن يغادر كل من اعتقلت المخابرات العامة آباءهم أو أمهاتهم بيت الطلبة ، ويلحقوا بأحد بيوت الطلبة التابعة للمخابرات العامة ، وفى نفس اليوم جاءنى المشرف وودعنى دون أن يقول لى شيئا •

ألغى هذا القرار بعد أيام قليلة ، فسمح لنا بالبقاء فى مسكننا ، وجاءنى المشرف — ولكنه كان مسرورا فى هذه المرة — وأخبرنى بأن الأمور عادت الى مجراها الطبيعى •

لم أعلم حتى اليوم ، لمن يعود الفضل فى انقاذنا ! هل كان النغاء القرار بناء على وساطة اللجنة الشيوعية العالمية ؟ على أى حال ، فقد كان الغاؤه وقاية لنا من مصير سىء ، كان ينتظرنا فى بيوت الطلبة ، التابعة للمخابرات العامة ، التى أعدت لاستقبال أبناء المقبوض عليهم • كتب علينا ألا نرى آباءنا سنوات عديدة ، ولكننا فى الوقت نفسه منحنا هبة ، ألا وهى عدم مغادرة مسكننا ، فإدينا الآن شىء نركن اليه : بيت الطلبة ، فهو بالنسبة لنا وطن ، وأسرة ، ومكان نحتفى فيه •

ماذا يحدث لو صدر قرار بالغاء هذا البيت وتسريح من فيه ؟ ..

* * *

في المدرسة الروسية

عدنا من القرم في النصف الثاني من شهر أغسطس ، وبعد مضي ستة أسابيع ، دعانا — نحن الكبار — ناظر المدرسة الى اجتماع خاص في مكتبه ، ثم وجه الينا الحديث :

« أيها الرفقاء ! لقد أتممت دراسة السنة السابعة ، ونريد اليوم أن نناقش مستقبلكم بصرحة ، فأنتم الآن تجيدون اللغة الروسية ، لذا أعرض عليكم اقتراحا يجب أن تفكروا فيه جيدا : أليس من الأفضل أن تتركوا مدرسة « ليبكنيثت » ، وتلتحقوا بمدرسة روسية ؟ وطبيعي أن هذا ليس اجبارا • ويمكن أن نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى في الأيام القليلة القادمة » •

وافق فريق منا في الحال على التحاقه بالمدرسة الروسية ، وتباطأ آخرون ، وكنت من المتباطئين ، كنت أجيد الروسية ، ولكن لم تبلغ درجة اجادتها اللغة الألمانية ، فلو كان الأمر يتعلق باللغة فقط ، لاخترت البقاء في المدرسة الألمانية ، اذ كان واضحا أن اقتراح « سيميونوف » رغم أنه لم يذكر الدوافع التي دفعته الى أن يقترح مثل هذا الاقتراح — له جذور سياسية • ومن المحتمل أن يكون الآخرون قد فهموا هذا المعنى أيضا ، لأنهم وافقوا جميعا في الاجتماع الثاني — الذي عقد بعد يومين فقط — على أن يلتحقوا بالمدرسة الروسية •

التحق — في أول سبتمبر ١٩٣٧ م — اثنا عشر تلميذا — منا نحن مجموعة الكبار في بيت الطالبة — بالمدارس الروسية ، ولم يدخلوا جميعا مدرسة واحدة ، بل وزعوا على عدة مدارس • أما المجموعتان الأخريان — « الصغار » و « المتوسطين » — فقد ظلتا « مؤقتا » في مدرسة « ليبكنيثت » الألمانية •

دخلت المدرسة رقم ٩٣ الكائنة في حارة صغيرة بالقرب من ميدان «أربات » • كان مبناها حديثا مثل معظم المدارس في موسكو ، وأثاثها فاخرا ، فرحب بنا التلاميذ ، والمدرسون ، وأبدوا استعدادهم لمساعدتنا فبما لا نستطيع فهمه في اللغة الروسية ، ولم نصادف منهم موقفا معاديا لنا •

لم يكن من السهل علينا متابعة الدروس ، رغم أننا كنا نفهم ما يقال باللغة الروسية ، كانت المرحلة الأخيرة في المدارس — وهي ثلاث سنوات — مقصورة على أولئك الذين يرغبون في مواصلة الدراسة في الجامعات والمعاهد العليا . فالمناهج في هذه المرحلة مزدحمة جدا ، اذ يطلب من التلميذ في هذه السنوات الثلاث الأخيرة ، تحصيل مواد تكاد تبلغ حد الاعجاز . ولا زلت مقتنعا بأن ما يتعلمه التلميذ في مدارس الاتحاد السوفييتي لا يقل — ان لم يكن أكثر — عما يتعلمه التلاميذ في أى مدرسة في غرب أوربا وأمريكا ، إلا أن التلميذ في الاتحاد السوفييتي لا يعرف الا وجها واحدا من الحياة ، ألا وهو ما تصوره له الأيدولوجية الشيوعية .

لم نتعلم اللغة اللاتينية ، ولا اليونانية — كان يوجد لغة أجنبية واحدة فقط — ولكن المطلوب في المواد الأخرى — وخاصة في مواد العلوم الطبيعية — كان كثيرا . فبينما كان معظم المواد في الفرقة الثامنة يعتبر امتدادا عضويا لما درسناه في الفرقة السابعة ، وجدت بعض التغيرات في بعضها ، اذ انقسمت الرياضة الى ثلاث مواد : جبر ، وهندسة ، وحساب المثلثات . أما الطبيعة والكيمياء فامتدت فيها الدراسة كما هما ، وتحولت الجغرافيا الى تفسير لجغرافية الاتحاد السوفييتي الاقتصادية . وفي علم الاحياء درسنا التشريح ووظائف الاعضاء والخلايا الحية في الانسان .

اقتصرنا في التاريخ على دراسة التطور التاريخي لشعوب الاتحاد السوفييتي ، وهي دراسة لا تبدأ بأحداث التاريخ الروسى ، بل بدولة « أورارتو » التى قامت في القرن التاسع حتى القرن السادس قبل الميلاد ، في المنطقة الموجود فيها الآن الأرمن السوفييت . أعنتى في حصة التاريخ في هذا العام — ١٩٣٨/٣٧ الدراسي — بدراسة القيصر ايفان « المرعب » . وكان أسلوب التحليل التاريخي لهذا القيصر ينبىء عن تغير هام ، اذ لم نتوقع اطلاقا أن يصبح هذا القيصر فجأة حاكما تقدما ، وموحدا لروسيا ، وأن المؤرخين الرجعيين لم ينصفوه ، ولم يعطوه حقه ، بل صوروه بصورة لا تليق به ، فأطلقوا عليه « المرعب » . ثم أبرزت باسهاب انجازاته التقدمية ، في توحيد المملكة ، وفي تطهير روسيا من الخونة ، وأشير الى ذلك — بنوع خاص — الى « أوبريت

شئينا » التى تتخذ رأس الكلب والمقشة رمزا لها ، اذ فسر رأس الكلب بأنه اشارة الى الخونة ، والمقشة تظهر روسيا منهم .

لم ندرس فى الفرقة الثامنة علم الاجتماع ، ولا مادة « علم الدستور » ، واستبدل بذلك مادة التربية العسكرية . وكنا نأخذها مرتين فى الأسبوع .

درسنا — بجانب التدريب العسكرى — هيكل الدفاع المدنى ، واجراءات الحماية من الغارات الجوية ، فسيطر علينا الرعب والخوف من الرسم الميكانى الذى كان يزداد صعوبة كل أسبوع ، اذ كان الاهتمام بهذه المادة شديدا — وهم على حق — لأن كثيرا ممن يجتازون امتحان الفرقة العاشرة (الثانوية العامة) يلتحقون بكليات الهندسة .

كان الاتجاه واضحا فى أنهم يعدوننا للكليات والمعاهد العليا ، اذ وضع لهذا الغرض برنامج اتصال بالجامعة أطلق عليه « أيام الباب المفتوح » وهو عبارة عن دعوة التلاميذ — ابتداء من الفرقة الثامنة — لزيارة كليات مختلفة ، حيث يقابلهم أعضاء هيئة التدريس (أساتذة ، وأساتذة مساعدون ، ومدرسون ، ومعيدون) وممثلو اتحاد الطلبة ، ليشرحوا لهم سير الدراسة فى الكلية ، وطبيعة المواد التى تدرس ، وأسلوب الحياة الجامعية . فسهلت هذه الزيارة على التلاميذ اختيار الكلية التى يريدون الدراسة فيها .

ساعدنا التحاقنا بالمدارس الروسية على التعمق فى هذه اللغة ، فتقدمنا فيها لدرجة أننا بدأنا — نحن الألمانين — نتحدث بها مع بعضنا حتى ولو لم يكن بيننا أحد من الروس ، وكان ذلك خطوة أولى على طريق اندماجنا فى الحياة الروسية ، ذلك الاندماج الذى بدأ فى عام ١٩٣٧ وقوى يوما بعد يوم .

ثم تلتها الخطوة الثانية فى بداية عام ١٩٣٨ م : فقد أغلقت مدرسة « ركارل ليبكنيشت » الألمانية ، لأنها لم تستطع مواصلة العمل بعد القاء القبض على المدرسين وعلى الناظر — ألقى القبض على الناظر « شلاسكو » ، وعلى خليفته أيضا « كرامر » ، فتحول جميع التلاميذ — الألمانين والنموسويين — الى مدارس روسية .

ازداد تقارب بيتنا — بيت الطلبة رقم ٦ — ببيوت الطلبة الروسين ، فعلى الرغم من استمرار زيارة ممثلى تنظيمات الحزب الشيوعى النمسوى ، وعدم انقطاع القاء المحاضرات عن المقاومة ضد الفاشية فى

ألمانيا والنمسا ، وعما يجرى من الأحداث في أسبانيا ، الا أنه يزداد يوما بعد يوم عدد الروس الذين يأتون إلينا ليتحدثوا في قضايا سياسية تتعلق بالاتحاد السوفييتى .

تعلمنا أن ننظر الى المسائل كلها من الزاوية السياسية ، أو على حد تعبيرنا في معظم الأحيان « من زاوية موقف معين » ، فقد تعودنا أن نبرر كل ما يفعله الاتحاد السوفييتى ، ولو كان هذا التبرير شاذاً ، كأن يتعلق بعمل يتنافى مع المبدأ الأساسى لمفهوم الاشتراكية .

ابتعدنا شيئاً فشيئاً عن أوطاننا الأصلية ، ففي البداية ، كتب التلاميذ في بيت الطلبة كثيراً من الخطابات الى أهلهم وأقاربهم في النمسا وألمانيا ، ثم قلت الى حد كبير ، اذ تضاعف التفكير في ألمانيا والنمسا ، بينما ازداد الاهتمام بالاتحاد السوفييتى . كان المتحدثون يذكرون فيما سبق الاتحاد السوفييتى في خطاباتهم على أنه وطننا الثانى ، ثم اختفت كلمة « الثانى » وبدأنا نشعر شيئاً فشيئاً ، كما لو كان الاتحاد السوفييتى وطننا الحقيقى والأوحد .

اختفت كلمة النمسا وألمانيا في أحاديثنا ، فلم تعد تذكر الا نادراً ، فبهتت الذكرى ، وهوت الى وادى النسيان العميق ، اذ صرنا شباباً سوفييتى الشعور والتفكير ، شباباً ليس عنده شعور وطنى نحو ألمانيا أو النمسا ، بل يميل بتفكيره وشعوره نحو الاتحاد السوفييتى . وهكذا تحول وجه بيت الأطفال (بيت الطلبة رقم ٦) في الفترة من ١٩٣٤ الى ١٩٣٨م ، فاتخذ طابعاً آخر ، والحقيقة أنه لم يعد بيت أطفال لأن مجموعة « الصغار » صارت « متوسطة » ومن أطلق عليهم قبلاً « متوسطون » أصبحوا « كباراً » ، بينما تجاوز من أطلق عليهم في الماضى « كباراً » عهد الطفولة ، فأقاموا احتفالات للرقص في يومى السبت والأحد ، ولا يمكن أن يفكر أحد من الزائرين أن القاطنين في هذا البيت أطفال .

كان واجب المشرفين — قبل شهور مضت — ومن يقوم بورديات الليل ينحصر في مراقبة مسائل الأطفال العادية ، كغسل الأسنان بالفرشاة والمعجون . . . وغير ذلك ، ولكن تصادفهم الآن مشاكل أخرى من نوع خاص فقد وقع معظم الغلمان في بيت الطلبة في حبائل الحب ، وأحلامه . ولكن !! صادفت أيام شبابنا المتفتح عهداً كئيباً .



مراقبة التطهير من بيت الطلبة

استمرت حركة الاعتقالات حتى بدا لنا أنها لن نتوقف ، بل زادت بعد عودتنا من المقيم في نهاية أغسطس ١٩٣٧م حتى اكتوى الكل بنارها في خريف هذا العام .

أصبح مألوفا لى أن أرى عند زيارة الأصدقاء بابا مغلقا بالشمع الأحمر ، أو أسمع أن أسرة بكاهلها ألقى القبض عليها ، وسمع مسكنها ، فقد صار مفهوم كلمة « الاعتقال » — الذى كان مخيفا ونادرا وقوعه نسبيا قبل بضع سنوات — شائع الاستعمال ، وكنت أرى في الطريق الى المدرسة يوميا السيارات ذات اللون الأخضر المخصصة لنقل المعتقلين .

تواردت الأنباء — دون انقطاع — عن اعتقال المزيد من قادة الحزب الشيوعى ، الذين قدهتهم لنا وسائل الاعلام من قبل على أنهم نماذج وأمثلة يجب الاقتداء بهم . ولم يختف ليلا مدرسو مدرسة « كارل ليبكنشت » فقط ، بل أيضا محررو « الجريدة المركزية الألمانية » . وكذلك العاملون في « نادى العمال الأجانب » ، وكنا نسمع يوميا عن حركة اعتقال جديدة بين صفوف المنفيين السياسيين ، ومنهم أعضاء رابطة الدفاع أيضا . لم يخف على أحد حالة الرعب التى سيطرت على حياة المدرسين في المدرسة ، والمشرفين على بيت الطلبة ، وحتى على أعضاء لجنة الفكر والدعوة في الحزب الشيوعى ، عندما كانوا يتحدثون في الاجتماعات التى كانت تعقد في المدرسة ، أو في سكن الطلبة .

أطلق على من لم يعتقل اسم « الفضلات » ، ولم يكن حالهم أحسن من حال المعتقلين ، فقد أصيب معظمهم بلوثة نفسية نتيجة وقوعهم تحت تأثير الخوف المستمر ، وكانوا أقرب الى الحيوان الوحشى الهائج من شدة الخوف من حلقة الصياد التى تضيق عليه الخناق شيئا فشيئا منهم الى البشر ، وعجزوا عن الوسيلة الصحيحة التى تتقدم من هذا الخطر الداهم ، ولكن أى الوسائل يمكن أن تؤدى الى بر النجاة ! تفاوتت آراؤهم في تحديدها فبدت كما يلي :

— الصمت واجب الآن . فان أمكن الانسان ألا يفتح فمه فليفعل ، وعلى الأخص فيما يمس السياسة ، فلا تبد رأيك اطلاقا ، حتى ولو كنت من المخلصين « للينين » ، الصمت ، والصمت فقط هو النصيحة الذهبية في هذه الأيام .

— لا يوجد اليوم أشد خطرا على المرء من الصمت ، لأنك بصمتك تشير للمخابرات أنك تحاول اخفاء أمر سرى ، أو تريد عذم اظهار أفكارك المعادية للنظام ، وسوف يقودك هذا الى أن تصبح عندهم من أعداء الشعب ، فالأحسن في الظروف الراهنة أن تكون نشطا ، ومتحدثا ، وداعيا بكل ماتملك للأفكار التي تنتشرها جريدة برافدا •

— لا أحد يدري ، على من يلقي القبض غدا بتهمة « العداء للشعب » !! لهذا يجب على المرء ألا يلقي التحية على أحد ، والأفضل أن يعزل ويعيش وحيدا •

— يجب على المرء الآن أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع الناس كلما أمكن ، وأن يتصرف بالضبط كما كان يفعل قبل ذلك ، لا يغير من أسلوبه شيئا ، حتى يظهر أن حركة التطهير لم تؤثر عليه ، إذ ليس أخطر على الإنسان من أن يعزل نفسه في حجرة صغيرة بعيدا عن أعين الناس •

— من أهم الأشياء الآن ، أن ينظم المرء مكتبته ، فكل الكتب التي يحتمل أن يكون فيها شيء لا يتفق مع الاتجاه السياسي ، يجب حرقها فوراً •

— لا يوجد في أشهر حركة التطهير هذه أخطر من أن يضع المرء ورقة في النار ، لأن الجيران يلاحظون هذا بسرعة ، فيؤول هذا العمل ، بأن وثائق أحرقت ، فيتهم المرء تلقائيا بالخيانة ، فوجود عشرات الكتب المعادية في المكتبة أهون من القاء ورقة في النار •

— خرج المرء من هذه الآراء صفر اليدين ، لا يدري ماذا يفعل ، ولم يختلف حال من أخذ برأى عن أخذ بضده ، بل تساوت ظروف كل الناس جميعا ، من التزم الصمت في غدوه ورواحه ، فصار أبكم مثل السمك ، بمن رفع صوته في مناسبة ، وغير مناسبة بترديد ما نشرته « برافدا » في مقالها الافتتاحي • ووقع في يد المخابرات العامة أولئك الذين انسحبوا من الميدان الاجتماعي ، واختفوا بسرعة ، بعد بدء حركة التطهير ، عملا بمبدأ الانعزال ، كما وقع في أيديهم أيضا من التزم بأسلوبه السابق في الحياة ، رغبة في ايهام من يراقبه بأن حركة التطهير لم تؤثر عليه • وألقى القبض على من أحرق نصف كتبه — حتى الكتب التي لا غبار عليها — كما ألقى القبض على الآخرين الذين لم يلقوا ورقة واحدة في النار ، خوفا من اتهامهم بأنهم أحرقوا الوثائق • وجملة

القول ، لم يكن هناك تذكرة طبية « روثة » للأبرياء ، تحدد لهم المسار الصحيح ، حتى يثبتوا للمخابرات بأنهم أبرياء حقا .

انتشرت شائعات في بيت الطلبة مفادها أن ٩٩ في المائة من المفبوض عليهم لم يرتكبوا اثما ، ولم يفعلوا شيئا ضد السلطة السوفييتية ولو ترك التحقيق يسير سيرا طبيعيا ، ما اعترف أحد بشيء مما نسب إليه . وسمعت آنذاك أن معظم القضايا استندت على أشياء تافهة ، لأن المخابرات العامة كانت تبحث عن أى شيء لتبرير القبض — ولو حوريا — كأن يتلقى المرء خطابا من الخارج ، أو يجلس في المقهى الوطنى ويتصافد في نفس الوقت أن يكون هناك أحد أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى ، حتى ولو كان على منضدة بعيدة عنه . أتخذ مثل هذه الأمور التى لا وزن لها أساسا يبنى عليه اتهام متخيل بالاشتراك في مؤامرة ضد « ستالين » .

كان موضوع حديث الذين لم يقبض عليهم بعد هو : هل ينبغي أن يمتنع المرء — باصرار — عن الاعتراف بجريمة مطلقة ، ويعارض التوقيع على أقوال لا أساس لها من الصحة ، أو يساعد المحقق في حبك مثل هذه القصة ، ويوقع عليها حتى يظهر له — على الأقل — استعدادا للتعاون معه .

اختلفت آراء من أعرفهم :

— أنا لم أفعل شيئا اطلاقا ضد السلطة في الاتحاد السوفييتى ، ولذا — لو قبض على — لا أفكر في الاعتراف بجريمة لم أرتكبها ، لن أقول شيئا ، ولن أوقع على شيء .

— ليس للقبض أدنى علاقة بمذنب أو غير مذنب ، فالامتناع عن القول لا يفيد أحدا ، بل بالعكس ، يكون سببا في توقيع عقوبة قاسية — هكذا قال أحد المعارضين للرأى الأول — ، ولهذا سوف أفكر من الآن في قصة يمكن تصديقها ، لأحكيها للمخابرات العامة — عندما أعتقل — كي أحصل على أخف عقوبة .

لم يكن قد مضى على هذا الحديث وقت طويل ، حين قابلت أحد الأصدقاء الذين يتمتعون بذكاء حاد ، فأخبرنى بأنه رأى أحد الذين قبضت عليهم المخابرات العامة — ولم يذكر اسمه — ثم أفرجت عنه ، وعلق على ذلك بقوله :

— أنا أعتقد أنى توصلت الى الحل ، وهو أنه يجب أن يفكر الانسان قبلها فى قصة ، هراء ، فى هراء ، وينظم أحداثها ، بحيث تتقنع المحقق أنها اعتراف مقبول ، وفى الوقت نفسه تتضمن هذيانا ، بحيث يبدو عدم احتمال وقوعها عند التدقيق فيها .
— كيف تبدو هذه الاعترافات ؟

— لم أفكر فى قصة لنفسى ، اذ لم تزل بعد خواطر ، ولكن ذكر صديق لى بعض أمثلة فقد اعترف كيميائى أمام المحقق ، بأنه باع للمخابرات النازية معادلة كيميائية هامة . فسأله المحقق باهتمام عن نوعية المعادلة ، فكتب له : هـ ٢ ، س و ٤ . وهنا اعتبر الاعتراف « هذيانا » .
« ألا تعرف ! لقد حكى لى أحد الأصدقاء ، أن كثيرا من أفراد جهاز المخابرات العامة المثقفين اعتقل ، ولهذا تتألف — فى غالب الأحيان — هيئة التحقيق من شباب الفلاحين ، الذين لا خبرة لهم . أتعرف قصة ميناء ليننجراد ؟

وحين أجبت بالنفى ، استمر فى حديثه :

« اعترف أحد المعتقلين ، بأنه اشترك فى مؤامرة خطيرة ضد الأسطول الحربى وذلك بأن اتفق مع آخرين بأن يقذفوه بالحجارة فى ميناء « كرون شتات » كى يتلفوا السفن الحربية ، والميناء الراسية فيه .
فقلت متعجبا : وماذا حدث له ؟

قال : حكم عليه بالسجن ثمانية أعوام ، ولو لم يعترف لحكم عليه بعشرة ، أو اثنتى عشر . لكنه تأكد أنه عند مراجعة الأحكام كلها — أى التى صدرت من هذه الدائرة — سوف يبرأ .

انقلبت موازين العقل ، واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ، اذ من المعروف أن الناس الذين يعيشون فى ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط ضدها ، يحاولون بشتى الطرق انكار هذا أمام المحقق — عندما يسألون بتهمة عدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن فى الاتحاد السوفييتى يفكر المرء فى خلق قصة طويلة خيالية تدفنه ، يقولها أمام المحقق اذا اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئا ضد نظام الحكم .

انتشرت الشائعات آنذاك ، كما هو الحال دائما فى مثل هذه الظروف ، فتهامس الناس — متفائلين — بأن « يشوف » سيعزل من

منصبه قريبا ، وانتشرت شائعة أخرى في شهر أكتوبر تقول : سيصدر عفو كبير في ٧ نوفمبر ، بمناسبة مرور عشرين سنة على قيام الثورة فسوف يفرج عن جميع المعتقلين •

جاء يوم ٧ نوفمبر ، ولم يصدر عفو ، ولكن أفرج عن بعض مئات من المجرمين الذين لا علاقة لهم بالمحكوم عليهم سياسيا في حركة التطهير ، كذلك لم يعزل « يشوف » من رئاسة جهاز المخابرات ، بل تلاشت هذه الشائعات ، في ظل الثناء عليه ، والتمجيد به •

لم تختلف الشائعات التي تحدثت عن مارشال « بلوشر » الذي كان يتولى قيادة المنطقة الشرقية • كنا قد سمعنا عنه فيما سبق أنه كان يتردد في العشرينات على الصين ، وعمل مع « صن يات صن » القائد السابق للثورة الصينية ، وعندما أنشئت رتبة « المارشالية » كان هو واحدا من أول خمسة حصلوا عليها ، ثم تولى قيادة المنطقة المعروفة باسم « المنطقة العسكرية لاقليم الشرق الأقصى » ، وهو مركز هام • كان أحد أعضاء المحكمة التي أصدرت الحكم بالاعدام على المارشال « توخاتشفسكى » في يونيو سنة ١٩٣٧م — هكذا يتهامس الناس الآن — ، ولكنه عاد الى الشرق الأقصى بسرعة • وبعد انتشار هذه الشائعة ، تلتها أخرى فقد قال لى أحد الأصدقاء :

— ان المارشال « بلوشر » غير راض على ما تقوم به المخابرات ، ولذا لم تمتد حركة التطهير الى الشرق الأقصى •
— ليس هناك اعتقال اطلاقا •

— يوجد اعتقال ، ولكنه في حدود الظروف العادية ، فهو لم يأخذ الصورة التي نشاهدها نحن الآن هنا •
— ولكن ، هل يمكن هذا ؟

— ولم لا يكون ذلك ممكنا ؟ فهو — أى « بلوشر » يملك السلطة العليا هناك ، ولا يسمع بهذا في منطقته ••• آه !! ليت المرء يستطيع أنسفر الى « فلاديفوستك » •

وتأملت عيناها لورود هذه الفكرة — ••• ولكنى أعتقد ، أن الأمر ينكشف قبل الرحيل بلحظة : ويلقى القبض عليه •

حكيت هذه الشائعة بأسلوب جديد ، وأضيفت اليها أشياء أخرى : قررت المخابرات العامة ، قبل بضعة أيام « القضاء القبض على المارشال « بلوشر » الخارج على الطاعة ، فسافر قطار خاص ، مليء

، برجالها لهذا الغرض ، وبعد مجاوزتهم حدود منطقة الشرق الأقصى ،
بمسافة قصيرة ، أحيط القطار بقوات المارشال « بلوشر » الخاصة ،
يعززها سلاح المدفعية ، فاضطر رجال المخابرات العامة الى التسليم ،
فاعتقلوا جميعا ، وهم الآن فى سجن « فلاديفوستك » • ثم يعقب الراوى
بهذه الكلمة :

(دا ولد عظيم ! انه المارشال بلوشر) •

ظننت آنذاك — ولم يصل هذا الظن الى اعتقاد الا اليوم — أن
هذه الشائعة ، كانت حلما من أحلام اليقظة التى تسيطر على أعصاب
الناس ، وكان آخر شعاع من الأمل ، فى ظروف اليأس ، والقنوط • ولكن
تلاشت أيضا هذه الشائعة ، حين تحدث الناس أن المارشال « بلوشر »
قد اعتقل ، واختفى كأن الأرض انشقت وابتلعتة ، اذ لم يعد يذكر
فى صحافة الاتحاد السوفييتى ، ولا فى اجتماعات الحزب •

استمرت حركة الاعتقالات دون توقف ، واستسلم الناس لقضائهم ،
وقدرهم كما لو كان ذلك من الكوارث الطبيعية ، التى ليس فى الامكان
تغييرها • وأكثر من هذا ، فقد تبادلوا فى هذا الوقت العصيب — ربما
لأنهم رأوا أنه لا يمكن تجنب ما يقع ، مهما فعل المرء — الدعابات
« النكات » :

تقابل اثنان — يدعى أحدهما « بول » والثانى « ايفان » من سكان
موسكو فى شارع « جوركى » :

أ — كيف الحال يا « بول » ؟

ب — ماذا تتوقع أن يكون يا « ايفان » ! الحال واقف كما فى
الأتوبيس •

أ — كما فى الأتوبيس ؟؟

ب — نعم ، كما فى الأتوبيس ، واحد فقط جالس ، والآخرون
يرتعدون •

كانت دعاية الساعة الرابعة صباحا منتشرة انتشارا واسعا ، وفى
اسمها اشارة الى حركة الاعتقالات التى تتم غالبا فى هذا الوقت :

فى تمام الساعة الرابعة صباحا دق جرس أحد الشقق حيث يسكن
خمس أسر ، فنهضوا كلهم مفزوعين من الفراش ، ولكن لم يجرؤ أحد
أن يفتح الباب ، اذ وقفوا جميعا ، كل وراء باب حجرته ترتعد فرائصه ،
وفقدوا السيطرة على أعصابهم •

ثم اشتد دق الجرس ، فتمالك أحدهم نفسه ، وفتح باب الشقة :
وسمعه باقى السكان يتكلم مع رجل عند الباب ، ولكنهم لم يفهموا
الحديث ، وعندما لاحظ أنهم يستعجلونه الخبر التفت وراءه الى أحد
الساكين الذى لا زالت فرائصه ترتعد وقال له :
هدى أعصابك ، فلم يحدث شئ اطلاقا .
(ما فيش حاجة غير أن البيت يحترق) .

الشكوك الأولى

لم أكن الوحيد فى بيت الطلبة الذى اعتقلت أمه ، فقد أخبر
تلاميذ آخرون عن طريق الرسائل ، بأن آباءهم أو أمهاتهم اعتقلوا
أيضا . انفكت عقدة اللسنة شيئا فشيئا ، فبدأ يعترف واحد بعد
الآخر بأن أباه ، أو أمه ، — أو كلاهما — اعتقله .

ومن الغريب أننا كنا نتصرف ازاء هذه الظاهرة بطريقة متشابهة :
فقد عرف كل منا ، منذ وقت بعيد ، أن أباه ، أو أمه اعتقل بدون
ذنب جناه ، ولكننا طبعنا بالطابع السوفييتى فى التربية ، لدرجة أننا
لم نتأثر فى اصدار أحكامنا على الأحداث ، بما يلحقنا شخصا — حتى
ولو أصابت آبائنا — رغم تأكيدنا من براءتهم .

لم يتأثر أحد منا — وكنا عشرة اعتقل أحب الناس اليهم — بما
أصابه شخصا من تعسف السلطات تأثرا يحوله الى معارضة النظام
الحاكم . بل كنا نبتعد تلقائيا عن الأفكار التى تصور لنا ، أن حركة
الاعتقالات الواسعة التى وقعت فى الفترة من ١٩٣٦ — ١٩٣٨م تتعارض
بطريق مباشر مع مبادئنا الاشتراكية ، ونحاول دائما — آنذاك —
أن نبرر هذا العمل بأنه يتعلق فى حد ذاته بأسلوب اتخاذ اجراءات
حتمية وهامة .

جلسنا ذات مساء معا ، فى بيت الطلبة نتجاذب أطراف الحديث ،
وكانت معنا فتاة ، اعتقلت المخابرات العامة أباه ، وحكم عليه بعشر
سنوات . بدأت الفتاة حديثها بقولها :

« أنا أعتقد أن المرء يمكنه شرح هذه المسألة بمثال : فلنصور أن
واحدا منا معه تفاحة واحدة ، وهو معتر بها لأنها الوحيدة ! ولكن
يوجد فى هذه التفاحة جزء فاسد ، أو مسمم ، فإذا أراد انقاذ التفاحة ،

فهو مضطر الى قطع الجزء الفاسد ، أو المسمم ، كي يحتفظ بالباقي سليما . ولكي يتأكد من أن كل الأجزاء الفاسدة قد أبعدت ، فلا بد من قطع بعض الأجزاء السليمة أيضا ، وربما ينطبق مثل هذا على حركة التطهير » .

وافقها تلميذ آخر وقال :

« من المؤكد أنه يوجد في الاتحاد السوفييتي عدد من الجواسيس ، والعلماء ، والخونة ، وربما تعلم السلطات السوفييتية ذلك ، ولكنها لا تدرى بالضبط ، أين ؟ ومن ؟ . ولأجل أن تؤمن نفسها ، وتتخذ الدولة السوفييتية ، اضطرت — سواء كان ذلك محمودا أو مذموما — الى اعتقال بعض الأبرياء ، وهذا بلا شك ، يؤلم كثيرا من الأفراد ، ولكن لا ينظر اليه من ناحية العدالة ، بل يدور الأمر حول انقاذ الدولة الاشتراكية الوحيدة في العالم !! » .

وقال الثالث :

« تتعلق المسألة أولا وأخيرا بقضية تاريخية ، لقد قرأت بعض الكتب عن الثورة الفرنسية ، وعلى الأخص ما كتب عن ديكتاتورية يعقوب (١) ، فقد وجد آنذاك قضايا ، وأحكاما بالاعدام ، ربما كانت — اذا نظرنا اليها من الناحية القانونية — غير سليمة ، ولكنها على الرغم من هذا أدت الى انتصار الثورة » . ولكنه — أى التلميذ — اصطدم بمعارضة حيث وجه اليه الحديث :

« هذا مثال خطير جدا ، ألم تضيق الديكتاتورية اليقوبية الخناق على نفسها بقضاياها ، وعنفها الثوري ، فجرها الى نهايتها — أرادت أم لم ترد — ، مما ساعد على انتصار الثورة المضادة !! » .

استمرت المناقشات وقتا طويلا ، تتأرجح ذات اليمين ، وذات الشمال ، والكل يحاول توضيح حركة التطهير من « الناحية التاريخية » ، اذ كانت معلومات مجموعة « الكبار » في بيت الطلبة واسعة ، لأنهم قرأوا كثيرا من الكتب ، وخاصة تلك التي كانت تعالج ظاهرة الديكتاتورية اليقوبية في فرنسا ، فقد كنا مهتمين بهذه الناحية اهتماما كبيرا ، لدرجة أنه كان يطلق علينا من باب الدعابة « جمعية عام ١٧٩٣ » .

(١) سياسى فرنسى ، كان عضوا بارزا في الجمعية الثورية الفرنسية التي تكونت عام ١٧٩٣ م والتي حلت في ١١/١١/١٧٩٤ م (م . شامة) .

كنت أتجول في المساء مع أصدقائي — وغالبا ما كنا اثنين أو ثلاثة — على الشاطئ في موسكو ، وكان الحديث يدور بحماس حول مشاكل الثورة الفرنسية ، ولكن لم توصلنا مناقشتنا الى نتيجة •

لا يستطيع الانسان الغربي أن يتصور صعوبة مناقشتنا ، فقد كنا نعجز عن مواصلتها ، لأننا لا نقرأ سوى ما يكتب في الصحافة عن قضايا الاتحاد السوفييتي ، لم نسمع صوتا واحدا معارضا ، بل لم نقرأ مرة واحدة ملاحظة نقد ، فلا نقرأ من الجرائد الا « برافدا » ، ولا من الكتب الا تلك التي تسير مع الخط الاشتراكي السوفييتي — وعلى هذا الأساس سمحوا بدخولها — وليس لدينا امكانية سماع الاذاعات الأجنبية ، حيث يسمع المرء تحليلات ، وآراء حول هذا الموضوع ، ولم نعلم أن كل الجرائد السيارة في الخارج مهتمة بالقضاء ، وبالاعتقال الجماعي داخل الاتحاد السوفييتي ، وأن كثيرا من الكتب عالجت هذه الظاهرة ، وحلت النظريات المختلفة لهذه القضية • كنا ندور في أفكارنا ، ومناقشتنا حول أنفسنا ، وعلاوة على هذا ، لم نتكلم — حتى في جلساتنا الخاصة التي لا تضم غير الأصدقاء — بصراحة ، بل أخذت أجاديتنا — بدون ارادة — طابع الرمز ، والاشارة •

حاولنا مرارا وتكرارا تبرير حركة التطهير حتى نحافظ على نظرتنا المثالية ، واعتقادنا في الانحداد السوفييتي ، على أنه البلد الاشتراكي الوحيد • ربما — هكذا كنا نقول لأنفسنا — كانت هناك أسباب لا نعرفها حتمت على السلطة ، اجراء هذه المحاكمات ، وأجبرتها على تنفيذ تلك الاعتقالات الجماعية ، ويحتمل أن يكون المتهمون التزموا السلبية ، فلم يكونوا خونة ، ولا جواسيس ، بل أعاقوا « بدون قصد » تطور الاشتراكية •

ألم يتحدث « ماركس » نفسه عن القوة ، فوصفها بأنها العامل المساعد على ميلاد مجتمع جديد ؟ أليس ممكنا • أن بعض المقبوض عليهم كانوا حقيقة جواسيس ، وأنه يجب — طالما لم يكن هناك تقارير مضبوطة — أن تظهر كل الوزارات والمصالح ؟

وأخيرا ، ألم يتعلق الأمر بحماية الدولة الاشتراكية الوحيدة في العالم ؟

كان بعضنا ينظر الى هذه الأحداث كحتمية تاريخية ، ربما

اقتضتها أسباب ضرورية لا نعرفها ، ولأهميتها البالغة لا يجوز لأحد من المسؤولين كشف النقاب عنها وإذاعتها •

وقع في يدي — عن طريق الصدفة — في ذلك الوقت الكتاب الذي هز العالم وقت نشره : « عشرة أيام » • ألفه الشيوعي الأمريكي : « جون ريد » ، وصف فيه أحداث ثورة نوفمبر ١٩١٧م التي شاهدها بنفسه في « بتروجراد » (ليننجراد) • لاحظت متعجبا أنه لم يذكر في هذا الكتاب اسم « ستالين » إطلاقا ، في حين أنه ذكر كل أولئك الذين وصفوا في هذه القضية بـ « الجواسيس » و « العملاء » على أنهم من قادة الثورة •

ثم قارنت ذلك مرة أخرى ، بما نشر في الجرائد حول القضية • • لا !! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة • • لم يكن ممكنا عندي أن نفس الشيوعيين الذين قاموا بثورة أكتوبر ، واحتلوا مراكز القيادة في الحزب منذ عام ١٩١٧م ، وقادوا الطبقة العاملة في روسيا الى الانتصار على البورجوازيين ، والعملاء الأجانب ، وأشرفوا في مراكزهم العليا على بناء الاشتراكية ، ليس من الممكن أن يقدم هؤلاء الآن ، على أنهم عملاء الاستعمار ، وجواسيس للقوى الأجنبية منذ العشرينات •

كلما طالبت حركة الاعتقالات ، ازداد شكى في دوافعها ، وتضاءلت ثقتي في سلامة اجراءاتها • وكنت كل مساء أتأمل — وأفكر — في الأحداث انجارية ، وأحاول البحث عن تفسير لها • أيقظتني حركة التطهير ، فأصبحت أنظر الى بعض الأحداث نظرة انتقادية ، واهترت عقيدتي بعض الشيء ، فهذا حماسي ، ولكنها لم تكن كافية في دفعي الى الكفر بالنظام الاشتراكي ، لأنها الشكوك الأولى ، ولم أكفر بنظام « ستالين » الا بعدها بعشر سنوات •



الاعتقال في بيت الطلبة

كنا ذات يوم ربيعي جميل — كان في مارس ١٩٣٨ م — مجموعة صغيرة ، اندمجت في حديث شيق ، عقب تناول الغداء ، فبقينا في صالة الطعام حتى خرج الجميع • وعندما تركنا الصالة مخترقين الردهة ، انفتح الباب الكبير ، ودخل منه رجلان بملابس مدنية ، ونزلوا السلم (٥ — نظام الحكم الشيوعي)

الصغير بخطوات بطيئة • مال أحد الزملاء الى ، وأسر في أذنى : رجال المخابرات !! ولم أكن محتاجا لهذه الاشارة ، فقد عرفتهم من أول نظرة • فتح باب صالة المذاكرة لحظة دخولهم ، ودلف منه المشرف النمساوى « كارل زهنتر » — كان عضوا في رابطة الدفاع الشيوعية في النمسا — وبصحبه تلميذ الى الردهة . فرأيا رجال المخابرات أيضا ، وسمعنا التلميذ يقول له مداعبا : آه !! احترس يا « كارل » فسيأخذوك ، فأجابه « كارل » : لا مكان للمداعبة في مثل هذه الأشياء ! أنت تعلم بالتأكيد ، أن السلطة السوفييتية لا تلقى القبض على برىء ، وحاول أن يضغط على مخارج الحروف ، حتى لا تبدو مهتزة • توجه اليه رجلا المخابرات ، وقال له : نحن نبحث عن « كارل زهنتر » فأجابهم بالروسية بصوت خافت ومرتعش : أنا كارل زهنتر ، فقال له : « أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » •

لم يفتح « كارل » فمه ، وبدون أن يلتفت سار مع الرجلين الى الباب المؤدى الى الشارع ، ثم سمعنا صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت • لو وقع هذا الحادث قبل بضعة أشهر ، لانفجرت بسببه موجات من المناقشة الحامية ، والأحاديث المستمرة التى لا تنتقطع ، ولكنه الآن — فى بداية عام ١٩٣٨ م — لم يؤبه له ، حتى لم نعرف شيئا من المدير ، يزيح النقاب عن مسألة اعتقال « كارل زهنتر » ، بل سكت عنه ، ولم يذكر اسمه اطلاقا • والنتيجة الوحيدة التى تلت هذا الحادث ، هى أن البعض أخذ حذره ، فلم يتكلم بالصراحة التى كان يتحدث أو يناقش بها من قبل •

وقعت بعد أيام قليلة مشادة بين أكبر اثنين من التلاميذ فى عنبر النوم ، كانا يبلغان السابعة عشرة من العمر • قال أحد التلاميذ وهو يدخل عنبر النوم :

« هل سمعتم أن السيد / فلان قد قبض عليه ؟ هو ذلك الرجل الذى كنا نراه فى نادى العمال الأجانب • وحينئذ نهض أحد التلميذين بسرعة ، وذهب الى صالة المذاكرة ، ثم عاد وفى يده « نوتة » • فقال له زميله « رولف جايسلر » : ماذا تفعل ؟ •

أجابه : سترى حالا ماذا أفعل ! وأخذ قلما وشطب فى « نوتته » على اسم وعنوان الرجل الذى أخبر القادم بأنه اعتقل ، وظل يسطر عليه خطوطا حتى أصبح من المستحيل معرفته ، ثم تفحص الورقة ،

ولكنه لم يكن مطمئنا ، فأحضر شفرة حلاقة وقطع الورقة كلها وقال ،
مبررا تصرفه : يجب على المرء أن يأخذ حذره .

فضحك « رولف » ضحكة استهزاء وقال :

أنت ضعيف الشخصية ، وجبان ، هل تسمى هذا شيوعيا ، أنا أحتقر
كل حقير جبان مثلك . لن تكون في يوم ما مكافحا اطلاقا .
فأجابه : ليس هذا جبنا اطلاقا ، بل هو مما يجب عمله لتكون حذرا
ومتيقظا .

ثم اندلعت مشادة بين « رولف جايسلر » وبين ذلك التلميذ الخائف
وفي النهاية صاح هذا التلميذ في وجه صديقي « رولف » :
انتظر ! سوف نرى أيننا سيقبض عليه أولا ، أنا أم أنت ؟ .

ثم رحنا في النوم بعد هذا الحديث الذي لم يحدث مثله من قبل في
بيت الطلبة . وفي الصباح الباكر — حوالي الساعة الرابعة — استيقظنا
جميعا على دق شديد على باب عنبر النوم ، ثم دخل رجلان يرتديان
الملابس المدنية إلى العنبر ، كما لو كانا من أصحاب البيت ، ووراءهما
المشرقة الليلية ، يبدو على وجهها الخوف والارتباك ، ثم نادى أحد
الرجلين بصوت عال : « أين رولف جايسلر » ؟

فأجاب « رولف » وهو في سكرات النوم :

نعم ، أنا هنا ، وعندما رأى الرجلين ، أعاد أجابته باللغة الروسية ،
ثم سمعت الجملة المعهودة للمرة الثانية :

« أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » وأردف
صاحب الصوت قائلا : أين حاجتك ؟

أشار « رولف » إلى صندوق بجوار السرير ، فسأله رجل
المخابرات : هل عندك سلاح ؟

فتدخلت المشرقة : ولكن أيها الرفيق ، هذا بيت يسكنه تلاميذ !
فرد عليها رجل المخابرات :

لم نسألك ! ثم التفت إلى « رولف » : هل عندك سلاح ؟

فأجاب « رولف » : لا ! .

فقال رجل المخابرات : حسنا ! احزم أشياءك ، ولكن ضع أولا كل
ما عندك من كتب ، وكراسات وأوراق على هذه المنضدة !

طار النوم في هذه اللحظة من أعيننا ، وانتبهت أعصابنا ، فسرى
الرعب في كل خلية فينا ، عندما سمعنا الجملة الأخيرة ، لأننا لعبنا

بِالْأَمْسِ — فنحن لا زلنا أطفالا — لعبة التصوير ، والتلوين بالأوراق ، وكان أحدنا عبقرى فى فن الكتابة والزخرفة ، فرسم لنا خاتما من الشمع ، بداخله علامة بريد خيالية ، وصورة عملة نقدية خيالية أيضا ثم عمل أوراق كثيرة للعب ..

وضع « رولف » كل هذا على المنضدة ، وفى هذه اللحظة فكر كل منا ، أن رجال المخابرات لن يهتموا إطلاقا بأوراق اللعب هذه ، لأنها لا قيمة لها ، ولا يمكن أن يفكروا فى أنهم اكتشفوا رموزا لجهاز سري . وقع ما لم نتوقعه ، فعندما وضع « رولف » الخاتم وكروت اللعب على المنضدة ، انتبه رجال المخابرات ، وبدأ على وجهيهما ما يدل على أنهما فهما أن هذه الأشياء — التى لعب بها الأطفال أمس — تدل على أسرار خطيرة .

انتهى « رولف » من ارتداء ملابسه ، ثم وضع بعض الملابس الداخلية فى حقيبته الصغيرة ، فقال له أحد الرجلين :

ينجب أن توقع على كل ورقة قبل أن تذهب .

وقع « رولف جايسلر » على كل خطابات ، وكراريسه ، ونوته ، ثم جاء الدور على ورق اللعب ، فحاول أحد التلاميذ أن يبين أن هذه أوراق لعب : أيها الرفيق ! هذه

فالتفت اليه أحد الرجلين قائلا :

لم نسألك .. لا يفتح أحد هنا فمه . ثم انتهت الاجراءات بعد دقائق ، واقتيد « رولف » ، ومرة أخرى سمعنا — بعد أن أغلق الباب — صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت .

اجتاحت البلد فى هذه الآونة — أى عندما امتدت حركة الاعتقالات إلى بيت الطلبة من جديد حمى قضية كبرى ، وكانت هذه المرة ضد ما أطلق عليه « كتلة المناوئين للاتحاد السوفييتى من اليمينيين ، والمتظاهرين بالشيوعية من أنصار تروتسكى » . فاقت هذه القضية كل ما سبقها ، سواء فى عدد المتهمين ، أو فى كثرة التهم ، الموجهة إليهم . كان على رأس المتهمين المخطط الإدارى المشهور للحزب « نيكولاى بوخارين » ، وهو عضو اللجنة المركزية ، والمكتب السياسى منذ عام ١٩١٧ ، ورئيس تحرير جريدة برافدا . كذلك وقف معه على رأس المتهمين البلشفى القديم « ريكوف » كان المسئول عن الشؤون الداخلية ، فى أول حكومة عسكرية بعد ثورة نوفمبر عام ١٩١٧ ، ثم تولى رئاسة

الهيئة التنفيذية الشعبية في الاتحاد السوفييتي بعد موت « لينين » ، وظل سنوات طويلة عضوا للجنة العليا لاتحاد الأحزاب الشيوعية العالمية . بدأ نجم « ريكوف » يأفل بعد أن تولى « ستالين » السلطة ، إذ أبعاد تدريجيا عن المناصب الهامة حتى وصل الى رئاسة شؤون البريد والتلغراف ، ثم أعفى من هذا المنصب في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ م ، دون ابداء أى سبب ، ولم يسمع عنه أحد شيئاً منذ ذلك الحين . ان من الأمور التي يعجز العقل عن إدراكها أن يجلس في قفص الاتهام « ياجودا » الذي تولى منصب وزير الداخلية ، ورئيس المخابرات العامة سنوات طويلة ، وكان رئيسا لمجلس الأمن القومي . أعفى من تلك المناصب الهامة في خريف عام ١٩٣٦ م ، وتولى شؤون البريد والتلغراف خلفا لـ « ريكوف » ، وكان هذا آخر محطة له في سلم المناصب ، ومقدمة لاعتقاله ، ففي ابريل عام ١٩٣٧ م أعلن بتجنيته من وزارة البريد ، وعندما نشر خبر صغير في منتصف مايو ، يفيد رفع اسم « ياجودا » من على كوبرى السكة الحديد المقام بين « فولوتشايفسك » ، وبين « كومسومولسك » أصبح واضحا أن « ياجودا » وزير الداخلية ، وقائد المخابرات ورئيس مجلس الأمن القومي سابقا ، اقتيد الى المعتقل عن طريق وزارة البريد . ثم نراه الآن — في مارس عام ١٩٣٨ م — مرة أخرى في قفص الاتهام .

جلس مع هاتين الشخصيتين في مقاعد المتهمين ثلاثة وزراء سابقين ، وثلاثة من أمهر ، وأشهر الأطباء السوفييت ، من بينهم انبروفيسور « بليتنوف » الذي اتهم في يونيو عام ١٩٣٧ م بهتك عرض مواطنة سوفيتية وعضها في ثدييها ، ولكن لم تذكر هذه الحادثة في قائمة اتهامه ، بل وجه اليه أنه اشترك مع الأساتذة الأطباء : « ليفين » و « كازاكوف » ، بأمر من « ياجودا » ، في قتل الشاعر « مكسيم جوركي » ، ورئيس المخابرات السابق « مينشينسكى » ، وعضو المكتب انسياسى « كيروف » . كذلك تجاوزت الاتهامات الأخرى الموجهة اليهم الحدود الزمنية للقضية السابقة — قضية هتك عرض المواطنة السوفيتية المزعوم — حيث ادعوا عليهم — ليس فقط الأطباء ، بل جميع المتهمين — أنهم دبروا في عام ١٩١٨ م مؤامرة ضد « لينين » ، وأنهم يتجسسون منذ أول العشرينات لحساب دول أجنبية ، وبالذات مع ألمانيا الهتلرية ، بغية اقتطاع منطقة أوكرانيا عن الاتحاد السوفييتي ، وضمها الى ألمانيا ،

ومع اليابان ، لتمكينها من أخذ المناطق الساحلية في الشرق الأقصى • ولم تنته قائمة الاتهامات عند هذا الحد ، بل وجه اليهم أيضا أنهم حاولوا تحقيق أهداف معينة ، وهي تسليم المناطق المتاخمة لبولندا اليها ، وفصل الجمهوريات السوفيتية في آسيا الوسطى — وهي جورجيا ، وأرمينية ، وأذربيجان — لتمكين بريطانيا منها ، وتفتيت أوصال الاتحاد السوفيتي ، ليعود الاقطاع والرأسمالية الى السيطرة على السلطة فيه مرة أخرى •

لم تكتف السلطات بهذه الاتهامات ، فوجهت اليهم أيضا تهمة التآمر لنخريب المصانع الحربية ، وتدبير فتنة بين قواد القطاعات العسكرية • ووجه الى « تشيرنوف » — وكان وزيرا للزراعة لفترة طويلة — أنه أفسد الجهاز الذي يتولى الاشراف على تربية الخيول ، مما سبب في موت ٢٥٠٠٠ حصانا ، وأمر بحرق الخنازير ، فانتشرت فيها مرض الحمرة ، والطاعون • كذلك انخفض توريد البيض الى موسكو ، وساءت خدمة تجهيز الزبدة ، فوجد الناس فيها زجاجا ومسامير •

لم توجه الى هؤلاء البلشفيين القدامى ، ورفقاء « لينين » في الكفاح تهمة الاتصال بالمخابرات الأجنبية التي تعمل لحساب اليابان فقط ، بل وجهت الى وزير الداخلية ، ورئيس مجلس الأمن القومي السابق تهمة الاتصال بألمانيا ، وبولندا ، واليابان أيضا ، والى وزير الخارجية السابق « روزينجولس » ، أنه كان منذ عام ١٩٢٣ م عميلا للمخابرات الألمانية ، ومنذ عام ١٩٢٦ م اتصل أيضا بالمخابرات الأمريكية • أما « راكوفسكى » رئيس حكومة أوكرانيا السابق فقد ذكر الادعاء أنه يعمل لحساب المخابرات الانجليزية منذ عام ١٩٢٤ م ، ولحساب المخابرات اليابانية منذ عام ١٩٣٤ م • كذلك اتهم وزير المالية السابق « جرينكو » بأنه يعمل لحساب المخابرات الألمانية ، ولبولندية معا منذ عام ١٩٣٢ م •

فرضت ضخامة الادعاء ، وكثرتها أسلوبا معيناً على وسائل الاعلام ، فانطلقت الأبواق الدعائية تصفهم بأوصاف لم تسمع من قبل ، فلم يطلق « فيشينسكى » على المتهمين الأوصاف المعهودة فقط مثل : « عصابة الجواسيس المجرمين » ، بل سماهم أيضا : « فقس الأفاعى الملعون » ، و « أكوام متعفنة من فضلات الانسان » كذلك وصف « فيشينسكى » المتهم الرئيسى « بوخارين » — وكان « لينين » يسميه

« ابن الحزب البار » — بـ « الخنزير الملعون » ثم طالب في آخر مقاله بأن يرمى هؤلاء بالرصاص ، كالكلاب المسعورة •

نظمت المظاهرات — كعادتهم ازاء أى حدث — ضد المتهمين ، وانعقدت المؤتمرات مطالبة برؤوسهم ، وازداد كل يوم اصدار البيانات — التى أعدت من قبل فى صيغ تكاد تكون متقاربة — التى تطالب باسم الجماهير بالاسراع باعدام أعداء الشعب • ونشرت الصحف صور المتظاهرين وهم يرفعون أيديهم ، مؤيدين الاجراءات التى اتخذتها السلطات ضد المتهمين •

أذيعت الأحكام رسميا فى ١٥ مارس ١٩٣٨ م فحكم على زعماء الحزب ، وقادة السلطة السابقين « كريستينسكى » و « ياجودا » و « بوخارين » و « جرينكو » و « ريكوف » و « تشيرنوف » و « روزينجولس » ، وعلى طبييين هما « كاساكوف » و « ليفين » ، وبعض المتهمين الآخرين بالاعدام ، وعلى كل من رئيس حكومة أوكرانيا السابق « راكوفسكى » والبرفيسور « بلينتوف » بالسجن عشرين عاما •

لم يسر برنامج الحصاص فى اليوم التالى كعادته ، بل سقط منه درسان ، تناولنا فى الزمن المخصص لهما دراسة القضية ، والأحكام التى صدرت فيها • بدأت المدرسة بافتتاح المناقشة ، واعتمدت فيما قالتها — وهو من الأمور المسلم بها — على ما نشرته « برافدا » فى مقالها الافتتاحى ، ثم طلبت — وهو ما حدث فى جميع قطاعات الشعب فى هذا اليوم — أن نبدى رأينا فى هذه القضية •

كانت نتيجة المناقشة معروفة ، ومحددة قبل أن نبدأ فيها ، إذ تحدث التلاميذ واحدا بعد الآخر مستعملين أقوال الرسميين التى يرددها كل فرد لاظهار استنكاره مما ارتكبه هؤلاء « الجناة الخونة » • ثم وجه كل منهم فى كلمته شكره العميق لجهاز الأمن وأعضاء المحكمة على مجهودهم فى تنقية الشعب من هذه « القذارة » •

ثم قالت المدرسة :

هل يرغب أحد فى ابداء ملاحظات أخرى ؟ فصاح أحد التلاميذ من الصفوف الخلفية :

« نعم أريد أن أضيف الى هذا ، أننى لست موافقا على بعض أحكام هذه القضية » •

انكمش كل التلاميذ من الخوف ، والتفتوا الى التلميذ : ينظرون اليه نظرة اشفاق ؛ لأنهم اعتقدوا أنه قضى على حياته بهذه الكلمة وسأل معظم التلاميذ أنفسهم : هل أصابه جنون ؟ هل اختل عقله ، نصار لا يدرك خطورة ما يقول ؟

اضطربت المدرسة ، وبدا عليها الخوف أكثر منا ، لأنها مسئولة عما يحدث في هذه المناقشة ، وحاولت بأسلوب خفى أن تمنع التلميذ من الكلام ، ولكنها تخلت عن هذه المحاولة ، ربما أدركت في هذه اللحظة ، أنها لو منعت ، لوجه اليها اتهام التستر على « تلميذ من أعداء الشعب » .
واصل التلميذ حديثه :

« لقد تتبعت القضية بدقة من أولها ، وأوافق على أن يرمى بالرصاص هؤلاء الجواسيس المخربون أعداء الشعب ، ولكن بصراحة ، لا أفهم اطلاقا : لماذا لم يحكم على ثلاثة من المتهمين بالاعدام ، بل حكم عليهم بالسجن . خمس عشرة سنة أو عشرين سنة . كان ينبغي أن يضرب بالرصاص كل من ... » .

تحدث التلميذ — وهو من الأذكياء ، وأحد المتفوقين في الفصل — بجماس بالغ ، كما لو كان معتقدا من قلبه في صدق أحداث هذه القضية .
تنفست المدرسة الصعداء ، فعاد اليها بعض الاطمئنان ، فهو وإن ابتعد في اعتراضه عن منطقة الهلاك 'لا أنه — نسبيا — خطير أيضا .
ثم لخصت ما دار في المناقشة ، ولم تنس أن توجه الحديث الى هذا التلميذ المتحمس قائلة :

« لقد أشار الرفيق « فيشينسكى » الى أن مسؤولية المتهمين في القضية لم تكن متساوية ، ولهذا صدرت الأحكام على كل بحسب ما اقترب . كذلك ليس من حقنا أن نوجه النقد الى قرار المحكمة العليا في الاتحاد السوفييتى التى أصدرت أحكامها بعد دراسة طويلة ، وفحص شامل ودقيق . وأحب أن أشير هنا الى أن الاختلاف في الأحكام ، طبقا لاختلاف الاثم الذى ارتكبه المتهمون ، دليل على عدالة القضاء عندنا في الاتحاد السوفييتى . »

معاهدة هتلر — ستالين

لم تتوقف حركة الاعتقالات بانتهاء هذه القضية — كانت احدى ثلاث قضايا كبرى شغلت الراى العام فى فترة التطهير من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٨ م ، فقد ازدادت مرة أخرى موجة الاعتقالات الجماعية فى خريف عام ١٩٣٨ م واستمرت حامية الوطيس بضعة أسابيع ، ثم نشر فى آخر هذا العام خبر صغير فى « برافدا » يعلن تنحية وزير الداخلية « يشوف » من منصبه وتعيين « بيريا » مكانه .

انتهت أفطح حركة اباداة ، اذ لم توجد مصلحة ، ولا هيئة حكومية ، لم يتعرض العاملون بها أكثر من مرة لحركة اعتقال واسعة النطاق . أرسل الملايين — ومن بينهم آلاف من المختصين فى الفروع المختلفة ، الذين بلغوا هذه الدرجة بشق الأنفس — الى معسكرات العمل فى سيبيريا ، وكازاخستان ، أو فى الشرق الأقصى .

ارتفع عدد الضحايا بنوع خاص فى صفوف البلشفيين القدامى ، وقواد الحرب الأهلية ، فقد اعتقل كل رفقاء « لينين » تقريبا ، الذين قاموا معه بالثورة . كان أعضاء المكتب السياسى فى عهد « لينين » سبعة ، انتحر « تومسكى » فى نهاية عام ١٩٣٦ م — أى عند بداية حركة التطهير — ، وأعدم رميا بالرصاص فى سجن المخابرات العامة أثناء فترة حركة التطهير كلا من « سينوفييف » و « كامينييف » و « ريكوف » . ثم اغتيل « تروتسكى » فى صيف عام ١٩٤٠ م فى منفاه بالمكسيك ، على يد أحد رجال المخابرات السوفييتية ، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى « ستالين » .

وكذلك أعدمت المخابرات العامة كلا من « بوخارين » و « بيتاكوف » اللذين وصفهما « لينين » فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى وصيته المكتوبة . بأنهما من أكثر شباب الجيل الجديد مهارة ، اذ يتمتعان بذكاء خارق . كان أعضاء اللجنة المركزية العليا للحزب الشيوعى فى عام ١٩١٧ م . واحدا وعشرين عضوا ، اختفى منهم فى حركة التطهير ستة عشرة ، اعتقلوا وأعدموا بالرصاص ، أما الباقون فقد مات ثلاثة منهم قبل التطهير موتا طبيعيا وامتد عمر اثنين فقط الى ما بعد التطهير وهما « ستالين » و « الكسندر كوللونتائى » .

لم يكن عدد الضحايا قليلا بين قواد الجيش ، فقد سقط ثلاثة

مارشالات — من الخمسة الذين كانوا آنذاك في الجيش — ضحايا حركة التطهير وهم : « توخاتشفسكى » و « بلوثر » و « بيجوروف » . وأخذ معهم جنرالات الصف الأول المعروفين في الجيش الأحمر . كذلك انتحر رئيس الادارة السياسية للجيش ، ووكيل وزارة الدفاع ، وهو « جرمانك » .

لم تنحصر موجة الاعتقالات في أصحاب المناصب العليا فقط . بل امتدت الى كل ركن من أركان 'الجمهوريات السوفييتية المختلفة' ، وارتفع العدد ارتفاعا رهيبا في المناطق الشرقية ، وفي منظمات الحزب ، وخاصة الأعضاء العاملين ، اذ اعتقل كل البلشفيين القدامى . بما عدا أفراد قليلين جدا — الذين ناضلوا ضد القيصريّة قبل الثورة الشيوعية ، ودخلوا السجون آنذاك ، أو عاشوا في المنفى . أُلقت سلطات الحكم في عهد القيصريّة بهم في السجون ، أو نفتهم الى خارج البلاد ، وهاهم الآن يعودون الى السجن مرة أخرى ، لكن سجانهم في هذه المرة هم رفقاء النضال في المرة السابقة .

اضطهد الشيوعيون الأجانب الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي اضطهادا عنيفا ، فقد اعتقل في مدى شهور قليلة من قادة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ما يزيد — في عددهم — على ما اعتقلته جميع الحكومات الأخرى من مواطنيها الشيوعيين ، وتملأ كتابات أسماءهم فقط عشرات الصفحات .

أريد أن أذكر هنا بعض أسماء قادة الحزب الشيوعي الألماني الذين راحوا ضحية حركة التطهير : « هيرمان شوبارت » و « أوجست كريتسبرج » و « فيللي ليون » و « هيرمان ريميل » و « هوجوايبرلاين » و « هانز كييينبرجر » .

ولحق بهم في مصيرهم : « فيرنر هيرش » رئيس تحرير مجلة : « العلم الأحمر » السابق ، و « فيللي كوسكا » الأمين الاول للجنة الرعاية الطبية الحمراء^(١) في ألمانيا ، و « كورت زاورلاند » رئيس تحرير مجلة 'للتعمير' الأحمر و « روتر أوفباو » كذلك اعتقل معهم مئات من الشيوعيين الألمان ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا في الاتحاد السوفييتي ملجأ يحتمون فيه من اضطهاد النازية .

أطلق الشيوعيون عليها هذا الاسم بدل اسمها الحقيقي 'الأحمر' ولأنهم

لا يعتبرون بالكنيسة ، وما يتصل بها . (م . شامة) انصاعا بعد ذلك لها

توقفت حركة التطهير الدموية فجأة في أواخر عام ١٩٣٨ م ،
أو أوائل العام التالي ، كما بدأت فجأة قبل عامين . وأتذكر اليوم متعجبا ،
كيف اتجه الناس في موسكو — وأنا أيضا — بسرعة الى تناسي جميع
صور الرعب ، التي كتمت أنفاسهم طول هذه المدة . فقد قاسينا كثيرا
في هذه الشهور المربعة ، التي أماتت شعورنا ، وقضت على حواسنا
البشرية . كذلك اختفت الاشاعات والمناقشات — حول ما يجب على
المرء عمله حتى ينجو — بسرعة كما ظهرت قبل عامين . وان ظهرت بين
الحين والآخر في الأحاديث اشارات قليلة ذكرت بالتطهير . وبدأت
هذه الاشارات كما لو كان الانسان يتحدث عن حوادث تاريخية قديمة
مضى عليها قرون طويلة .

قضينا صيف عام ١٩٣٩ م في مدينة « يجسك » على بحر
« أسوفش » ضيوفا على أكاديمية عسكرية كبرى ، وكنا نرى العسكريين
وعلى رأسهم قلانس مكتوب عليها (W.M.A.U. imoni Stalon)
ومعناه « مدرسة الأسطول الحربى للسلاح الجوى » وكانت مدرسة
فخمة جدا فسكان المدينة — كلهم تقريبا — كانوا ضباط وجنود السلاح
الجوى البحرى .

نزلنا في بعض أبنية جميلة خارج المدينة ، لم تكن قريبة من الشاطئ ،
ولهذا وضعت المدرسة البحرية أتوبيسا تحت تصرفنا لينقلنا يوميا الى
الشاطئ صباحا ويعود بنا في المساء الى مقر اقامتنا .
استمتعنا بهذه الرحلة استمتعا أزال عنا ما خلفته أعوام التطهير
السوداء ، فهدأت أعصابنا ، ولكن لم نتحرر التحرر الكامل من مشاكل
الحياة .

كنا نعد أنفسنا في أيام الرحلة لدخول مدرسة منظمة الشباب
الشيوعى ، وذلك بعقد اجتماع كل يومين بعد الظهر مع المرشد السياسى
« أجور سبيرامسكى » لتثقيفنا سياسيا . وليس من الأمور الصعبة
معرفة الموضوعات التي تناولها معنا ، اذ لم تكن سوى تاريخ الحزب
الشيوعى السوفييتى ، فقد نشر فيه كتاب في خريف عام ١٩٣٨ م ،
درسنا معه هذا الكتاب صفحة صفحة ، وكانت المرة الثانية لى ، فقد
قرأته قبل ذلك . (قرر علينا فيما بعد ، فدرسته للمرة الثالثة) .

وجهت اليها الدعوة في منتصف أغسطس لحضور حفلة في قصر

الثقافة الكبير التابع للمدرسة البحرية ، ودارت المحاضرة التي ألقىته في هذه الليلة حول الوضع العالمي — كما كانت العادة آنذاك — فاستملت على هجوم عنيف ضد الفاشية ، وألمانيا النازية وكان مما قال المحاضر حرفيا :

« أيها الرفيقات والرفقاء ! يوجد معنا في هذه الصالة ضيوف أجانب هم أبناء المناهضين للفاشية من الألمانين والنمسيين : الذين كافحوا ضد ديكتاتورية « هتلر » الطاغية » • التفت الحاضرون إلينا ، وأصبحنا منذ ذلك الوقت أعلاما في هذه المدينة • كنا سعداء ، وكانت تلك الفترة حلما جميلا في حياتنا ، فمضيفوننا يزوروننا ، ويسألون عما نحتاج إليه ، وعما إذا كنا مسرورين بهذه الإقامة • ذكرتنا هذه الحفاوة البالغة بالأوقات السعيدة التي قضيناها في حفاوة الهيئات السوفييتية في بداية إقامتنا في الاتحاد السوفييتي •

مرت ثلاثة أيام على هذا الاحتفال يوم استدعى المشرف السياسي إلى الذهاب إلى المدينة — ظهرا — لأنه مطلوب على التليفون فقال لنا : « سافروا بهدوء إلى الشاطئ ، واستمتعوا بالسباحة ، وسأعود إليكم في المساء ، فالمسألة لا تعدو أنى مطلوب على التليفون • فسألناه : ماذا حدث ؟

— لا أدري ! لا أعتقد أنه شيء مهم •
ذهبنا للسباحة ، يحدونا النشاط ، ويملأنا السرور •
ولم يمض نصف ساعة حين عاد إلينا المشرف السياسي مصطربا ، ونادى بصوت عال :

— أخبار مهمة جدا ، لقد أحضرت معي الملحق الخاص للجريدة الصباحية •

سألناه بصوت واحد : ماذا حدث ؟

— لقد عقدنا معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا •

نظرنا إليه بأفواه فاغرة ، فقد كنا نتوقع كل شيء إلا هذا • تابعنا — قبل ذلك — الصحافة ، ونما تقوله وسائل الاعلام الأخرى باهتمام شديد • وكنا متأكدين أن المحادثات مع الغرب — على الرغم من تعثرها وتعقدتها — لن تستؤدي إلى عقد تحالف مع إنجلترا وفرنسا ضد المعتدين الفاشيين •

قرأ المشرف السياسى أمامنا — بصوت عال ، يبدو على نعماته .
الرضا ، بما توصلت اليه حكومته ! — نصوص المعاهدة بين الاتحاد
السوفييتى وألمانيا الهتلرية • فاعتقدنا بعد سماع المقدمة أن الأمر
لا يعدو التزام الطرفين بعدم الاعتداء على بعضهما ، ثم واصل « اجور »
قراءته ، فأصابنا الذهول حين قرأ :

« تستمر حكومتا الطرفين المتعاقدين فى الاتصال ببعضهما ، لتبادل
المعلومات حول مصالحهما المشتركة ، ويؤكد كل من الطرفين المتعاقدين
أنه لن يشترك فى حلف يكون موجها — بطريق مباشر أو غير مباشر —
ضد الطرف الآخر » •

لم يكن هذا — بالتأكيد — معاهدة عدم اعتداء فقط ، بل تغييرا
جذريا لسياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية برمتها ! تبادل معلومات
حول « المصالح المشتركة » مع نظام هتلر ؟ عدم المشاركة فى أى حلف
يكون موجها ضد هتلر ؟ لن يكون هذا سوى رفض نهائى لكل صور
المقاومة للاعتداء الفاشستى !!

جلسنا — كمالو كنا قد أصابتنا صاعقة — صامتين ، لا نستطيع
حراكا ، ثم قطع الصمت أصغر التلاميذ وهو « اجون ديرن باخر »
فقال بنبرة حزينة :

« وا أسفاه ! لن يسمح لنا بمشاهدة فيلم شابلن « الدكتاتور » •
فهم هذا التلميذ الصغير الظروف فهما دقيقا ، اذ سرعان ما أثرت
هذه المعاهدة — كما رأينا فى الأيام التالية — على السياسة الداخلية •
لم يعقد اجتماع لاجراء مناقشة حول هذا الموضوع ، لأنه لم
يوجد أحد — حتى المشرف السياسى — يستطيع أن يعطى تفسيراً لهذه
المعاهدة •

حاول المشرف السياسى تهدئتنا فقال :

« ان من المؤكد أن تنشر الصحافة غدا تفسيراً مفصلاً وواضحاً
ومع ذلك فسوف أسافر غدا الى مقر الحزب فى « جيئك » ، ثم أبلغكم
بتقرير مفصل ، ثم نتناقش فى مساء الغد بالتفصيل فى كل صغيرة
وكبيرة •

هذا اذا لم يحدث شئ آخر يبدد خططنا الرئيسية !!!

حل بيت الطلبة

أيقظنا المشرف السياسى فى الصباح الباكر لليوم التالى لعقد
المعاهدة وقال :

— لقد وصلت توا برقية لاسلكية من موسكو ، تطلب عودتنا فوراً
— حالا ؟ اليوم ؟

— نعم ، لقد أخبرت بهذا بعد أن استفسرت بوضوح ، وسنتحرك
بعد ساعتين الى موسكو عن طريق « رستوف » •

استولى الحزن علينا فى القطار ، ولعبت بأفكارنا الهواجس ،
ودارت فى أذهاننا أسئلة لم تجد اجابة : ما معنى هذه العودة الفجائية ؟
على أى نحو سوف تشكل حياتنا بعد أن عقد الاتحاد السوفييتى معاهدة
مع ألمانيا الهتلرية ؟

انتظرنا بفارغ الصبر وصولنا الى موسكو لنقف على حقيقة هذا
التغيير ، وآثار ذلك بالنسبة لنا ، ولم نحتج الى الانتظار ضويلاً ،
فقد قابلنا بعض زملائنا الذين قضوا اجازاتهم فى مكان آخر وعادوا
بسرعة قبلنا ، على محطة السكة الحديد وصاحوا فى وجوهنا : لقد حل
مسكننا !!

لم يوجد خبر آخر هزنى وأظلم الدنيا أمام عيني مثل هذا الخبر •
مسكننا ؟ لقد كان كل شئء بالنسبة لنا : فهو مأوانا ، وحياتنا
وحامينا وصديقنا ! والآن ! يختفى بين يوم وليلة !

وقفنا فى مفترق الطرق ، لا نستطيع أن نتصور ما يخبئه المستقبل
لنا !

— ماذا يفعلون بنا ؟

— لا نعرف شيئاً حتى الآن ، سوف يتقرر ذلك بعد الظهر •

سافرنا — بقلوب منقبضة — من المحطة الى بيت الطلبة فى المبنى
رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » ، قرأينا أساسه مبعثراً ، كما لو كان
مخلفات معركة ، انتهت قبل ثوان ، وعمال نقل الأثاث والنقاشين وعمال
السباكة ينتقلون هنا وهناك ، هذا يحزم الأمتعة وآخر يصلح هذه أو
تلك • أما أمتعتنا الشخصية فقد جمعت ، وألقيت فى أهدي الصالات ،

ولاحظنا أن بعض زملائنا قد حزم أمتعته ، واستعد للرحيل ، ولكنهم لا يعرفون الى أين ؟ أما الآخرون فمشوا من حجرة الى أخرى ، فاقدين الوعي ، يبرزون تحت عبء ألقى عليهم من حيث لا يدرون ، ولا يعرفون طريقا للخلاص منه .

سوف يعقد اجتماع ! أين ، ومتى ؟ لا أحد يعرف مصيرنا بالضبط ! لم يجب المشرفون على استفساراتنا الا بهز الأكتاف ثم يقولون : « لا نعرف شيئا ، فنحن وأنتم سواء في الجهل بما سيتخذ بالنسبة لكم ، وعلى كل فالناظر في مقابلة الآن مع المسؤولين » .

وعندما عاد الناظر نادوا جميع التلاميذ :

« تعالوا الى الصالة الكبرى ، سيبدأ الاجتماع بعد لحظات » .
اختلف هذا الاجتماع عن الاجتماعات السابقة ، اذ اختلفت منه جميع مظاهر التكريم ، والتبجيل ، فجلسنا على صناديق وأكياس ، وبعضنا وقف مستندا على الحائط .

بدأ الاجتماع — كما هو العادة — بكلمة سياسية ، ثم « شرح » لنا الناظر المعاهدة ، فأشار الى أن القوى الغربية رفضت المحادثات على أساس المساواة بين الأطراف كلها ، لأنهم أرادوا استغلال الاتحاد السوفييتي لخدمة مصالح الاستعمار الغربي ، وفهم « ستالين » العظيم هذه اللعبة ، فقرر معاهدة مع ألمانيا تتيح للاتحاد السوفييتي أن يعيش في سلام ويواصل التشييد والبناء .

ثم جاء دور الكلام عن بيت الطلبة فقال : « ونشأ عن السياسة الخارجية الجديدة ادخال بعض التعديلات في الأنظمة » .

انطوى مسح بيت الطلبة ، من الوجود بهذه السرعة تحت هذا التعبير « بعض التعديلات في الأنظمة » . ثم بين الاتجاهات الجديدة باختصار ، وبعبارات تتم عن القسوة ، والشعور باللامبالاة ، فلم يبدل أدنى جهد لتهيئتنا من الناحية النفسية ، لتقبل التغييرات الجديدة ، فأحسست تلقائيا بأننا « مسحنا » من الوجود .

ثم واصل حديثه :

رغم أن سلاسل التلاميذ الذين لم يتجاوزوا الفرقعة السابعة اليوم بعد ، ظهر الى بيت الطلبة الروسي المعروف باسم « سبارتاك » أمّا التلاميذ
لعدد لعدد .. لهذا لم يبق رقا رقا من سلاسلهم

الأكبر سنا فيمكنهم الذهاب الى إحدى المؤسسات التي ترعى ثئون الايواء (الملاجئ) ، ومن يريد منهم مواصلة التعليم حتى الثانوية العامة يرسلون مع الصغار الى بيوت يعيشون فيها مع التلاميذ الروس ، ويجب عليهم أن يخضعوا هناك للتعليمات التي تسرى على غيرهم من تلاميذ الاتحاد السوفييتي .

انتهت كل التعليمات في مدى نصف ساعة ، ثم أرسل في نفس اليوم أربعون تلميذا الى بيت الطلبة « سبارتاك » . لم يبدو من انناحية الظاهرية اختلاف كبير بينه وبين بيتنا القديم ، فالبنى جميل وان كان أصغر من بيتنا السابق .

دخلنا المنزل الجديد بخطى متباطئة ، ثم سمعنا صوتا ينادى : « ادخلوا جميعا بسرعة الى الصالة » . بدت اللهجة شديدة ، لم نتعودها ، فوقفنا مذهولين في الصالة ، ثم دخل رجل قارع الطول ذو شعر أسود ، ووجه صارم ، فقال بلهجة أشد من سابقتها :

« اصطفوا في صف واحد » فأطعنا الأمر ونحن خائعون ، ثم نزلت علينا الأوامر ، كما لو كانت هراوات تسقط بشدة على أكتافنا : « لا يجوز لأحد مغادرة المنزل الا بتصريح من المشرف . ويجب أن تعمل الواجبات المدرسية تحت رعاية المشرف ، كما يجب عليكم أن تنترموا بتنفيذ قواعد وأنظمة المنزل ، فالتدخين ممنوع معنا باتا ، حتى في فناء المنزل ، وينبغي على المدخنين أن يسلموا فوراً ما معهم من سجائر ، ومن لا يفعل الآن ، سينزل به أقصى العقوبات فيما بعد » .

كانت أعمارنا تتراوح بين سبعة عشر وتسعة عشر عاما ، ويملك بعضنا — وأنا منهم — علب سجائر في جيبه ، فقد كان مسموحا للكبار منا في مسكننا السابق بالتدخين .

ثم أردف مهديا : « أدعوكم مرة أخرى ، سلموا اسجائير التي معكم طوعا ، فمن لم يفعل هذا الآن ، ينتظر العقاب الصارم فيما بعد » .

تقدم أحدها فسلم ما معه من السجائر ، ثم تبعه الآخرون مكرهين واحدا بعد الآخر .

ثم أرسلنا الى الأماكن التي سوف ننام فيها .. انزعجنا عندما

رأينا. صالة النوم ، فقد صفت فيها سراير يدائية حقيرة ، لا يفصلها عن بعضها الا مسافة ضيقة جدا ، وهنا بان لنا أن الاختلاف بين هذا المنزل وبين بيتنا السابق كبير جدا • وقلت لنفسي — لو اطلعت على هذه الأفكار المخبرات العامة لاعتبرتها متاوعة للسلطة :

« من المسلم به أن الوفود الأجنبية لا تأتي هنا . غزيرة مثل هذا البيت لا توضع في برنامجهم » •

حان موعد العشاء ، وليس من الضروري القول بأنه كان سيئا !! لم يضايقني التعبير فيما يتعلق بالماديات ، بقدر ما ضايقني الحجر على حريتي الشخصية •• بأن أخضع خضوعا كاملا لهذه الأنظمة فلا يسمح لي بأن أتجول فترة قصيرة للترويح عن النفس الا بتصریح خاص !! وشاركني في هذا كل التلاميذ ، لدرجة أنهم كادوا يذرفون الدموع •

قال أحدهم ثاكيا :

« ما أردنا هذا المنزل ، فهو يختلف اختلافا كليا عن بيتنا السابق ، لم أكن أتصور اطلاقا أن الفرق بين بيتنا وبين بيوت الطلبة الروس كبيرا إلى هذا الحد » •

كتبنا في مذكراتنا :

« آخر أغسطس ١٩٣٩م ، استمر بيت الطلبة رقم ٦ — وكان مأوى أطفال مناضلي رابطة الدفاع النمساوية : وأطفال الألمانين اللاجئين إلى الاتحاد السوفييتي — خمسة أعوام تقريبا — قضيت فيه منها ثلاث سنوات — ، تعرفنا في هذه المدة على الاتحاد السوفييتي ، ولكن من نظرة جانبية لشباب يافع ، عاش في مسكن مجهز بأدوات الراحة ، لم يشعر بمناعب الحياة اليومية ، فاق مستواه المعيشي مستوى الطبقة المتوسطة في الاتحاد السوفييتي ، فنحن وان كنا عاصرنا سنوات التطهير النقاسية ، الا أننا لم نكتو بنارها ، مثل أولئك الذين كانوا يعملون في مؤسسات ، أو تنظيمات أخرى •

انتهت الآن كل هذه الامتيازات ، اذ بدلت معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية أسلوب حياتنا ، فألغى بيت الطلبة رقم ٦ ، وطردها منه ، وتحولت حياتنا بين يوم وليلة إلى حياة انسان سوفييتي عادي • (م ٦ — نظام الحكم الشيوعي)

